مجلة البيان – العدد 78 ، صفر 1415هـ / يوليو 1994م

كلمة صغيرة

الخطاب العلماني - إزاء فضحه مـن الإسـلامـيـين وتعريتهم له في الكثير من الدراسات - اتخذ مساراً جديداً بعيداً عن الموضوعية التي طالـمـا تشـدقــوا بها ومصادماً للحرية التي يزعمون أنها من حق الآخر ، باتخاذهم منهجاً جديداً في الـسب والشتم والقذف ، وحتى لا تراق مياه وجوههم لا يوقعون -أحياناً- ردحهم في العداء للإسـلام ودعــاتـه وهذا ليس غريباً عليهم فهم جبناء عند الحوار الموضوعي،وإذا تورط أحدهم فيه، استخدم كل مواهبه في التزوير والمغالطة والكذب لستر سوءاته ، وقد أدى بهم هذا النهج إلى التأكيد على أنهم منافقون عقدياً ، وميكيافيليون سياسياً ، وسوفسطائيون فكرياً ، بل إن أحدهم سمى اهتداء الفنانات (الحرب بالنقاب)!

فماذا يبقى لكم من دعوى الإسلام إذا هاجـمـتـوه أو أنكــرتم ما جاء به؟! أو اتهمتم دعاته بأنهم دعاة للظلام والتخلف!! إن ثقة الناس في علمائهم الـمـوثـوقـيــن لا حد لها ، مهما افتريتم عليهم أو غالطتم في حقهم.

وأخيراً نقول لكم (إذا لم تستحوا فاصنعوا ما تشاؤون).

الافـتـتـاحـيـة

تعالوا إلى كلمة سـواء

الحمد لله وحده والصلاة والسلام عـلـى رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد..

لما رأى نفر من عقلاء الأمة أن قوتهم ونـهـضـتـهـم لا يـمـكــن أن تكون إلا بالعودة للأصول وبالرجوع للجذور ، وظهرت الصحوة الإسلامية على كل الأصعدة ، وإن كانت لم تسلم من بعض السلبيات إذ صارت مع اختلاف الآراء وتباين الـمـنـطـلـقـات مجالاً للحزبية الضيقة وحـب السـيطرة والزعامة فنشـأت اختلافات في الـرؤى والـمـنـطـلقات سـاهمت في إضعاف هذه الصـحوة مما مكن لأعدائها من العلمانيين بشتى اتجاهاتهم المشبوهة من الافتراء عليها والدعاية الكاذبة ضدها،ولا يكاد مجتمع إسلامي أن يسلم من الصراع المرير بين الإسلاميين والعلمانيين ووجدت بعض الـحـكـومــات فـي بـعـض الـبلدان فرصة في تأجيج الصراع بين الفريقين لتبقى هي المسيطرة على أزمة الأمور، ولـتـنـسـى الشـعـوب المغلوبة على أمرها ما تعيشه من ظلم وفقر وجهل..

وبما أن الإسـلاميين هـم أصـحاب المبادئ والدعـاة إلى الحق وأن فتح المجال لهم سيؤدي في النهاية لسقوط تلك الحكومات الصوتية ، لذا عمدوا إلى

مـضـايـقـــة الـتـيـار الإسلامي بمصادرة حقه في الوجود ، وبوضع القوانين التي تحد من دوره وفعالية تأثيره فـي تـلـك الـمـجـتـمـعـات ، مع التفنن في وضع كل صور الاستفزاز للإسلاميين وبخاصة في وسائل الإعلام والتـعـلـيـم ، وعـمـلوا بأسلوب معروف هو (احتواء) بعض العلماء ليكونوا ناطقين رسميين لتلك الحكومات الـعـلـمـانـيـة ضد أي رأي صادق ، وأي فكر نزيه يدعو لإعطاء الإسلام ودعاته دورهم في الإصلاح ورأيـنـا من هؤلاء من يهاجم دعاة الإسلام بكل صفاقة لصالح من لا يحكم بشرع الله ، فإلى الله المشتكى.
هذا فضلاً عن ما تقوم به تلك الحكومات مــن تـشـجـيـع لـلـتـيـارات العلمانية من يسارية وليبرالية ، بإعطائها حق الوجود ، وحق إبداء الرأي وبكل الوسـائـل الــمـتـاحة، بـــل وفـسـحت المجال للافتراء والكذب على الإسلاميين بلا وازع من دين أو رادع من ضمير ، فهل هذا من العدل أو من المساواة أو من الحريات التي طالما تشدقت بها تلك الحكومات؟! إن الحقيقة العلمية الثابتة تؤكد على أن الضغط يولد الانفجار..!
لذا وجدنا تلك المجتمعات التي حرمت دعاة الإسلام من العمل في وضح النهار وفي الهواء الطلق ، وأطلقت العنان لغير الإسلاميين من أي توجه علماني ، بدعوى أنه لا يصح قيام تجمع مــن مـنـطـلـق ديـنـي لأننا حسب رأيهم كلنا مسلمون.. لكنها لم تحرم الأحزاب القومية أو الأحزاب الديمقــراطية ، ولم تحرم الأحزاب الوطنية بالحجة نفسها ، ولكن حين نعلم السبب يبطل العجب فالمقصود هو الإسلام الذي لا يُراد له صوت مرتفع يدعو باسمه لأن الشعوب مسلمة ، وحل مشكلاتها فعلاً في الإسلام ، وحينها ستسقط الأصنام.
لقد وجدنا تلك المجتمعات التي يناوئ حكمها الإسلام ودعاته تعيش أوضاعاً مأساوية من الاضطراب وفقدان الأمن، مما هو حديث الساعة كل يوم.
لكن حـين تُحرم بعض الفـئـات مــن حـقـوقـهـا وتضطهد وتُحارب في وجـودها فمن يمنع اليائسـين من ردود الأفعال العنيفة ومن يقنع أولـئـك بـعـدم تجــاوز الحدود ومن يفهمهم بسـلوك الطريق المسـتقيم وعدم اللجـوء إلى العنف المضاد؟!
لا يكاد يختلف اثنان في أن السبيل إلى ذلك هو إعطاء الجميع حـقـوقـهــم وعدم التفرقة في المعاملة في الحقوق المدنية ، وفتح الحوار عن طريق العلماء المعروفين بخبرتـهـم ومـــاضيهم المجيد في الدعوة إلى الله ، وأن خلاف ذلك ليس من ورائه إلا سوء الأحوال مما يـسـر له كل عدو وشامت ، ولا نشك أن وراء تلك الفئة أناس مشبوهون يعملون على اضطراب مسار الأمة وانحرافه عن الصواب.
والملاحظ أنه عند فشل السياسات الحكومية العلمانية في حرب الدعوة والدعاة ، وحينما يكـون نـتـيـجـة العنف والإرهاب الحكومي عنفاً وإرهاباً مضاداً يعلم الحاكمون بأمرهم أن اللجوء للحوار هو البديل ، لكننا نفاجأ بأن

الحوار إنما هو انتقائي ، وأن فئات فاعلة لها كيانها ولها تأثيرها ، بل حتى اتجاهات فكرية تعرف بالاعتدال من كل الدارسين عالمياً ، نفاجأ أنهاً نُحيت عن الحوار ولا ندري مع من يتم الحوار وعلى ماذا يتم التناقش.

والويل كل الويل لمن يحتج أو يطالب حتى بتطبيق قانونهم جدلاً فاللجوء إلى القمع جاهز، وإعـلان الـطــوارئ أو الحصار أقرب ما يكون! إنه من العقل بل من الشرع والمصلحة العليا للأمة المراجعة الشاملة لسياسات الضرب بيد من حديد أو ســياســـات الضرب في المليان، والعمل على جمع الأمة على كلمة سواء وأن يعطى العلمـاء دورهـم الصـحـيـح فـي الدعـوة وجـمع الشمل والحوار البناء قبل أن تحترق الأوراق وقبل أن نعض أصابع الندم.

إننا مازلنا ندعو إلى تحـكـيــم شرع الله ، فـهـو علامة إسلامنا ودليل انتمائنا لهذا الدين، تحقيقاً لعبوديتنا لله تعالى ، واحـتـرامــاً لرغبات شعوبنا التي تطالب بتحكيم شريعة الله والتوقف عن مهازل مجالس الشعب والبرلمانات التي تلهي الأمة بالدعوة لتطبيق الشريعة، ثم الدعوة إلى التقنين لأحكامها، حـتى إذا أوشـكــت تلك المجالس على تنفيذ ذلك حلت بأمر رئاسي فتلغى تلك الجهود التي أوشـكـــت عـلـى التمام لتبدأ من جديد انتخابات ثم مناقشات ثم دراسات ثم تحل، وهكذا دواليك. إن تلك الأساليب لم تعد تخفى على أحد، فهي أساليب مخادعة ومكشوفة ، فإلى متى نخادع شعوبنا ونغالط أنفسنا؟!

إن واقع أمتنا مرير منذ أن نحيت شريعة الله ، ومنذ حكم أمتنا كل عـلـمـاني عنيد يقـف بكل صفاقة ضد أي دعوة إلى تحكيم الإسلام بدعوى أنه رجعية وتخلف، فــأي خير يأتي من هؤلاء غير ما نلمسه من انحراف وسوء أحوال؟ مما جرأ إحدى الدول الغربية لتضع في استراتيجيتها الاستعمارية الجديدة العمل عـلـى زيــــادة تأثير نفوذها في إحدى الـبـلـدان الـعـربـيـة ، وقد نشر هذا على الملأ ، فهل من مصلحة أمتنا أن يتحكم فيها الأجنبي وأن يبعد عنها كل مصلح غيور؟!

إننا ندعو إلى المراجعة وإلى المحاسبة وإلي الاستماع إلى كـل قول رشيد يهدف إلـى المصلحة العليا للأمة ، بدلاً من أن نكون معوقين للوصول إلى جـــادة الصواب ، ومكـرسين لعوامل القلق والاضطراب.. إن علاجنا بين أيدينا لكننا نهرب عنه متشبهين بأهــل الكتاب الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها.

العزاء لنا وللأمة جميعاً أن كل طاغية ينحي شرع الله ويحارب أولياءه إنما هو مُحارب لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولن يفلح مثل هؤلاء أبداً ، ولنا أمل جد كبير فـي الله تعالى أن يرزق الأمة الرجال الأكفاء الذين يعيدونها للمنهج الإلهي وأن يضعوا ثقـتهم في العلماء المخلصين والدعاة المصلحين مع العمل لما فيه مصلحة البلاد والعباد ، وحـيـنهـا سيغير الله الأحوال إلى الأحسن والأصلح بإذنه تعالى ، وما ذلك على الله بعـزيـز ، إن صحت النوايا وحسنت المقاصد ، وإلا فالموعد الله ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

مـصـطـلـحـات

أهـل السـنة والجماعـة

محمد بن عبد الله الوهيبي

السنة في الاصطلاح تأتي بعدة مـعـان(1) ولا يعنينا في هذا المقال الموجز تتبع تلك المعاني ، وإنما يعنينا أن نُعَرّف بمصطلح »الـسـنـة« أو »أهــل السنة« باعتبارها دلالة على اتجاه معين في الاعتقاد ، يقول الإمام ابن رجب رحمه الله:»... وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء«(2) ومراد هؤلاء الأئمة بـ »الـسـنة« طـريـقــة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي كان عليها هو وأصحابه ، السالمة من الشبهات والشـهـوات ، ولـهــذا كـــان الفضيل بن عياض يقول: »أهل السنة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال«(3) ، وذلك لأن عــدم أكــل الحرام من أعظم خصال السنة التي كان عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضي الله عـنـهـم ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم: السنة عبارة عما سـلـم من الشبهات في الاعتقادات ، وبخاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والـيـوم الآخــر ، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة ، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب الـسـنـة وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم ، والمخالف فيه على شفا هلكة ، وأما السنة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات)(4).

وأهل السنة هم المتبعون لسنة الرسول -صلى الله عـلـيه وسلم- وسنة أصحابه رضي الله عنهم ، يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله : »... ولا ريب فـي أن أهـــل النقــل والأثر المتبعين آثار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآثار أصحابه ، هم أهل السنة«(5).

إذاً لـفــظ »أهل السنة« يقصد به معنيان: الأول متابعة السنن والآثار الواردة عن الرسول -صلى الله عـلـيـه وسلم- وصحابته رضي الله عنهم والعناية بها ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، والتزام موجبها من الأقوال والأعمال في مجال العقيدة والأحكام والثاني: أخص من المعنى الأول ، وهو الذي عناه بعض المصنفين حيث سموا كتبهم باسم السنة كابن أبي عاصم وأحمد بن حنبل وابنه والخلال وغيرهم ، ويعنون بذلك الاعتقاد الصحيح الثابت بالنص والإجـمـــاع ، وفي كلا المعنيين يتبين لنا أن مذهب أهل السنة امتداد لما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصـحـابـتـه الكرام رضوان الله عليهم أما التسمية بأهل السنة فنشأت بعد الفتنة عند بداية ظهور الفرق.

قال ابن سيرين رحمه الله : »لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل الـسـنة فيؤخـــذ حديثهم

وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم«(6) ، وسئل الإمام مالك رحـمـه الله »من أهل السنة؟ قال: أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا قدري ولا رافضي«(7)، ثـم لـمـــا صارت للجهمية شوكة ودولة امتحنوا الناس ودعوهم إلى التجهم بالترغيب والترهيب فآذوا الناس وعذبوهم ، بل وقتلوا بعض من لم يقل بقولهم ، فسخر الله لأهل الـسـنة الإمام أحمد رحمه الله حيث صبر على امتحانهم وابتلائهم ، وناظرهم وفند حججهم وأعلن السنة وأظهرها ، ووقف في وجه أهل البدع والكلام ، فصار بسبب ذلك يلقب بإمام أهل السنة.
نستنتج مما سبق أن مصطلح »أهل السنة« اشتهر عند الأئـمـــة المتقدمين باعتباره مصطلحاً مقابلاً لمصطلح »أهل الأهواء والبدع« من الرافضة والجهمية والخـــوارج والمرجئة وغيرهم ، فأهل السنة هم الذين بقوا على الأصل الذي كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضي الله عنهم.

أهل السنة والجماعة:

ويطلق على أتباع مذهــب السلف الصالح في الاعتقاد »أهل السنة والجماعة« ، وقد وردت أحاديث كثيرة تأمر بلزوم الجماعة ، وتنهى عن الفرقة والخروج(8) ، وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعـــة على عدة أقوال(9) أحدها أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام ، والثاني أنهم الأئمة المجتهدون والثالث أنهم الصحابة رضي الله عنهم ، والرابع هي جماعة المسلمين إذا أجمعوا على أمر ، والخامس جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.
وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى معنيين: (الأول: أن الجماعة هم الذين اجتمعوا على أمير على مقتضى الشـــرع ، فيجب لزوم هذه الجماعة ، ويحرم الخروج عليها وعلى أميرها ، والثاني: أن الجـمـاعة ما عليه أهل السنة من الاتباع وترك الابتداع ، وهو المذهب الحق الواجب اتـبـاعـه والسير على منهاجه ، وهذا معنى تفسير الجماعة بالصحابة ، أو أهل العلم والحديث ، أو الإجماع ، أو السواد الأعظم...)(10).
ويقول شيخ الإسلام: »وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الإجماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس المجتمعين و »الإجماع« هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه فـي العلم والدين ، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة ، مما له تعلق بالدين...«(11).
ومصطلح »أهل السنة والجماعة« يؤدي نفس المعنى الذي يؤديه مصطلح »أهل السنة« ، فعامة استعمالات الأئمة له مقابل أهل البدع والأهواء ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى((يوم تبيض وجوه وتسود وجوه))[آل عمران: 106] ، »فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة ، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة«(12).

وقال سفيان الثوري رحمه الله : (إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة، وآخر بالمغرب فابعث إليهما بالسلام وادع لهما ، ما أقل أهل السنة والجماعة)(13).

إذاً يمكن أن نعتبر مسمى أهل السنة والجماعة بين الفرق ، كمسمى المسلمين بين الملل، فالانتساب إليه والتسمى به واستعماله باعتباره دلالة على صحة الاعتقاد والمنهج، أمر حسن وسائغ باعتباره انتساباً لاسم شرعي ، وقد استعمله أئمة السلف ، ومن أكثر الأئمة استعمالاً لهذا المصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الأشاعرة والماتريدية ومصطلح أهل السنة والجماعة:

يكثر استعمال هذا المصطلح بين الأشاعرة والماتريدية ، ويعتبر كثير منهم أن مذهب السلف »أهل السنة والجماعة« هو ما قاله أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ، وبعضهم يعتبر أهل السنة والجماعة »الأشاعرة والماتريدية ومذهب السلف«.

يقول الزبيدي: (إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية)(14) ، ويقول صاحب الروضة البهية: (اعلم أن مدار جميع عقائد أهل السنة والجماعة على كلام قطبين أحدهما الإمام أبو الحسن الأشعري والثاني الإمام أبو منصور الماتريدي...)(15) ، أما الأيجي فيقول: (... وأما الفرقة الناجية المستثناة: الذين قال فيهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-: »هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي« فهم الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة)(16) ، ويقول حسن أيوب من المعاصرين: (أهل السنة هم أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ومن سلك طريقهما ، وكانوا يسيرون على طريقة السلف الصالح في فهم العقائد) (17) ، وعامة هؤلاء يذكرون عقائد الأشاعرة والماتريدية على أنها مذهب أهل السنة والجماعة ، وليس المقصود هنا مناقشة هذا الادعاء الباطل ، وإنما أردت ذكر فائدتين في هذا المجال هما:

1- أن استعمال الأشاعرة والماتريدية ومن تأثر بهم لهذا المصطلح لا يغير شيئاً من حقيقة ابتداعهم وانحرافهم عن منهج السلف الصالح في أبواب كثيرة لا مجال لتفصيلها هنا.

2- أن استعمالهم لهذا المصطلح لا يمنعنا من استعماله والتسمي به باعتباره اسماً شرعياً استعمله أئمة السلف ، ولا يعاب من يستعمله أو يُذم ، إنما يعاب إذا خالف اعتقاد ومذهب السلف الصالح في أي أصل من الأصول.

هـوامـش:

(1)اجتهد بعض الباحثين في تتبع معاني السنة ومرادفاتها ، ومن أوسع الدراسات في ذلك ما كتبه الشيخ عبد الرحمن المحمود في »مواقف ابن تيمية من الأشاعرة« 1/3804، وما كتبه الشيخ ناصر العقل في رسالة مستقلة بعنوان »مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة«.
(2)رواه اللالكائي في شرح السنة رقم 49.
(3)انظر نصاً مقارباً في اللالكائي رقم 51 ، وأبي نعيم في الحلية 8/104.
(4)كشف الكربة 1920.
(5)تلبيس إبليس لابن الجوزي 16 وانظر الفصل لابن حزم 2/107.
(6)رواه مسلم في مقدمة صحيحه ص 15.
(7)الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر 35.
(8)انـظــر رسالة قيمة في هذا الباب فيها جمع للنصوص الواردة في ذلك وعنوانها »وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق« ، جـمال بن أحـمد بـادي انظر ص 15-117.
(9)الاعتصام 2/260-265.
(10)موقف ابن تيمية من الأشاعرة 1/17.
(11)مجموع الفتاوى 3/175.
(12)رواه اللالكائي 1/72 ، وابن بطة في الشرح والإبانة 137 ، ونسبه السيوطي إلى الخطيب في تاريخه وابن أبي حاتم ، الدر المنثور 2/63.
(13)رواه اللالكائي في شـرح السـنة 1/64 وابن الجوزي في تلبيس البليس 9.
(14)إتحاف السادة المتقين 2/6.
(15)الروضة البهية لأبي عذبة 3.
(16)المواقف 429.
(17)تبسيط العقائد الإسلامية 299 وانظر التبصير في أصول الدين153 والتمهيد للنسفي2، والفرق بين الفرق 323 ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي 150 وغيرها.

محاضرات إسلامية

فـقـه النوازل والواقعات
دليل على ارتباط الفقه بالحياة
- 2 -

د. عبد العزيز القـارئ

في الحلقة الأولى من هذه المحاضرة لفضيلة الدكتور عبد العزيز القارئ عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، تطرق فضيلته إلى حقيقة الفقه وكيف أبدع الصحابة فيه ونبه فضيلته على خطر ظاهـرة الاشتغال بالصناعة الحديثية على حساب الفقه بمعناه الشامل ، ثم تطرق لمسألة الاجتهاد وأثره العظيم في حياة الناس وبيان الأحكام الشرعية ، وكيف كان فقه الصحابة فقه تطبيق وليس فقه نظريات جامدة ، ونواصل معكم بقية هذه المحاضرة المهمة.

-الـبـيـان-

نماذج من فقه الصحابة:

وسأضرب لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في فقه النوازل والواقعات أربعة أمثلة:

المثال الأول في العبادات:

الأذان يـوم الجمـعــة: فقد كان الأذان في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- أوله عندما يجلس الإمام على المـنبر ، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر ، وفي عهد عثمان وعلي ، كثر الناس وزاد الأذان الـثـالـث عـلـى الـزوراء(1) ، الأذان الثالث كما ورد في النص باعتبار الأذان الذي عند جلوس الإمام على المنبر وباعتبار الإقامة فإنها تسمى أيضاً أذان ، فزاد الأذان الأول على الزوراء، وفي بعض الروايات أن الزوراء دار كانت في السوق ، وفي بعض الروايات أنه أمر بذلك ليعلم الناس بدخول أو بحضور وقت الجمعة قبل أن يخرج الإمام إلى المسجد أو إلى المنبر.

ما كان هذا الأذان على عـهـد الـنـبـي -صلى الله عليه وسلم- ولا على عهد الصاحبين ، وإنما هو سنّه الخليفة الراشد عثمان قـياسـاً على باقي الصلوات ، هذا أذان لإعلام الناس بدخول الوقت في أوله ، فقاس الجمعة على باقي الصلوات ، هذه نازلة وهذا ما واجهها به الصحابة من فقه ، والصحابة في عهد عثمان عملوا بفعله في سائر المدن والأمصار ، وقد كانوا منتشرين فيها.

المثال الثاني في الـطـلاق:

فقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عـنـهـمـا أن الطلاق كان على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعهد أبي بكر وسنتين من خلافــة عـمـر ، أن طلاق الثلاث كانت توقع واحدة ، فقال عمر: »إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم«(2) ، فأمضاه عليهم بمشاورة من الصحابة ، وحقيقة هذه المسألــة كما أفهم والله أعلم أن عمر أولاً كان يسأل المطلق الذي أوقع الثلاث دفعة واحدة عن قـصــده مــاذا يقصد هل يقصد إيقاعها ثلاثاً أو ما قصد إلا التأكيد وإيقاعها واحدة ، ثم لما تتابع الناس على ذلك ، وكثر منهم واستخفــوا به صار لا يسأل أحداً عن مقصده ، ولا يفرق بين

من يقـصـد الـتـأكـيـد وإيـقـاعـهــا واحدة أو لا يقصد ذلك ، ويمضيه على الجميع ثلاثاً ردعاً للناس الذين كثر منهم هذا واستخفوا بحدود الله عز وجل. هذا مثال آخر لطريقة الصحابة في مواجهة النوازل ، فإن الحال في وقت عمر تغير عن الحال في وقت النبي صوأبي بكر.

المثال الثالث حـد الخمـر:

وهو يشبه هذا المثال ، ولكنه في الحدود (حد الخمر) ، فشارب الخمر في عهد النبي -صلى الله عـلـيــه وسلم- كــــان يضرب بالجريد وبالنعال ويبكت (بمعنى أن يقال له أما تستحي أما تتقي الله.. ونحو ذلك) ، وفي عهد أبي بكر جلد أربعين ، وفي عهد عمر قال عمر رضي الله عنه : ويبدو أن شــــاربي الخمر قد كثروا في عهده فاستشار الصحابة ، فقال علي رضي الله عنه إنه إذا شربها سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى ، فجلده ثمانين مثل عقوبة القربة ، وفي رواية أن عبد الرحمن بن عوف قال له رضي الله عنه : إن أخف الحدود ثمانون جلده فأمضوا عـقـوبــة شارب الخمر ثمانين جلدة ، فاختلف الفقهاء في فهم ذلك: بعضهم قالوا إن حد الخمر ثمانون ، وبعضهم قالوا حدها أربعون وما زاد فهو تعزير ، وللإمام أن يزيد تعزيراً إذا كان ذلك اجتهاد من إمام عادل.

المثال الرابع في المعاملات:

وهو تضمين الصناع ، فالصانع إذا ادعى هلاك المتاع الذي بحوزته وليست له بينة على ذلك ، كان في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعهد الخلفاء قبل علي يُصدّق ، وفي عهد علي ألزمهم بالضمان ، وقال لا يصلح الناس إلا ذلك. لماذا؟ لأن الناس في عهد علي رضي الله عنه اختلف حالهم عن حال الناس فـي عـهـد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعهد أبي بكر وعثمان فإن التزامهم بالصدق وبالحق صار أخف مما سبق فاختلف حالهم عن ذي قبل ، ومن مثل هذا استنبط العلماء قاعدة اختلاف الفتوى بسبب فساد الناس ، كما تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أحكام ، ففساد الناس وفساد الأحوال تتغير بموجبه الفتوى.

هذه أربعة أمثلة تبين لنا منهج السلف أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مواجهة ما يستجد من واقعات ونوازل ، ونستفيد من هذه الأمثلة دروساً عظيمة لواقعنا ولحالنا أصلح الله حالنا ، ومنها:

1- أن الاجتهاد لا يسوغ من كل أحد إنما يسوغ ممن له الأهلية فقط ، فإن أبا بكر أو عمر أو غيرهما من الخلفاء الراشدين ما كانوا يستشيرون كل أحد ، بل كانوا يستشيرون فقهاء الصحابة وأهل العلم والرأي منهم.

2- ومن هذه الدروس أن الاجتهاد ليس صلاحية مطلقة للـمـجـتـهـد ، بل يجب أن يكون مقيداً بالقواعد الشرعية والمبادئ الكلية والأصول المعتبرة عند الفقهاء وعند العلماء ، والتي استنبطت من الكتاب والسنة. ولو تأمل الدارس

المتفقه كل مثال من الأمثلة الآنفة الذكر وغـيـرهـــا من الأمثلة ، لوجد هذه الحقيقة فيها ، فإن الصحابة رضي الله عـنـهـم لا يخرجون في اجتهاداتهم هذه عن المبادئ الكلية التي دل عليها الكتاب والسنة.
3- ومن هذه الدروس أن مدار الشرع على المصلحة: على جلب المصالح المعتبرة ، وعلى درء المفاسد المحققة فحيث ما تكون المصلحة الشرعية فثم شرع الله كما يقول ابن القيم رحمه الله فلا أقول كما يقول بعض الكتاب المعاصرين: إن الشريعة الإسلامية مرنة!! فكلمة مرنـــة في عرفهم تحتها ما تحتها ، لكن أقول إن الشريعة الإسلامية ، والفقه الإسلامي صالح للتطبيق في كل زمان ومكان مهما اختلفت أحوال الناس ، ومهما استجد من متغيرات ومـــن تطـورات فالمصلحة معتبرة لكن أهواء الناس غير معتبرة ، وشهوات الحكام ورغبات السلاطين غير معتبرة في الشريعة الإسلامية ولا لدى الفقهاء الذين يتقون الله عز وجل في البيان ، وهذه القاعدة (دوران الشرع على المصلحة) لا يعرفها إلا الفقهاء ولا يقدر على تطبيقها إلا الفقهاء والعلماء الربانيون.
4- ومن هذه الدروس أيـضـــاً أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إضافة إلى عملهم الغزير بكتاب الله عـــز وجل وبسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، وبفهمهم العميق للأحكام الشرعية كـانـــوا كـمــا نوهت على بصيرة كاملة بالواقع وتتعجب من اخـتــلاف فتياهم ، فتجد الصحابي في المدينة له فتوى وفي العراق له فتوى أخرى ، وفي حالـة له فتوى وفي حالة أخرى له فتوى أخرى ، كما ضربتُ في هذه الأمثلة ، وهذا يدل عـلـى أنهم متبصرين بالواقع الذي يعايشونه مدركين تمام الإدراك للوقائع المستجدة التي يواجهونها ، وهكذا يجب أن يكون الفقيه.
ومن أعجب الأمثلة على ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجــل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال له: ألمن قتل مؤمنا توبة؟ قال: إلى الـنـــار، فلما ذهب وانصرف قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا فما شأن اليوم؟ قال: إني أحسبه مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك(3).
فاختلاف الحالة لدى المفتي كالطبيب يصف لكل مريض ما يناسب حاله فلو أفتى هذا بأن له توبة كأنه حرّضه على أن ينفذ ما فـي قـــرارة نفـســـه ، وفي رواية أنه سئل يعني أن سـائـلـين سألاه فسـأله سـائل هل لمن قتل توبة؟ قال: لا وســألـه سائل آخر في مرة أخرى فـقـال: نعم. فلما سئل عن هذا الاختلاف في الفتوى قال: رأيت في عيني الأول أنه يقصد القتل فقمعته ، وأما الثاني فكان صاحب واقعة يطلب المخرج.
هل تريدون مثالاً أوضح من هذا على عظم أهمية أن يكون الفقيه متبصراً بالواقع، عالـمــاً بأحوال الناس ، عالماً بملابسات الوقائع التي تطرأ عليه والنوازل التي تستجد؟!

5- ومن أعظم الدروس المستفادة من هذه الأمثلة آنفة الذكرأن فـي منهج السلف أصحاب رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- ما يمكن أن نسميه بالشورى العلمية فقد كان أبو بكر الصديق إذا نرلت به نازلة ، ولم يجد فيها فيما يعلم سنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخرج إلى الناس فيسألهم ، أخرج البغوي عن ميمون بن مهران رحمه الله قال: كان أبـو بكر إذا ورد عليـه الخصوم نظر في كتاب اللـه فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به ، فإن لم يكن في الكتاب ، وعلم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين: أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ، فربما اجتمع النفر كلهم يذكر كل واحد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضاء ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم (لاحظ استفتاء ثم شورى أهل الفقه والحل والعقد) ، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به. وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك إلا أنه إن أعياه أن يجد فـي القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء فإن وجد أبا بكر قضى به بقضاء قضى به وإلا دعا رؤوس الناس، فـإذا اجتمعوا على أمر قضى به ومع أن هؤلاء هم من هم ومع ذلك لا يغـتـرون برأيهم ولا يستــدلون باجتهادهم ، بل يشاورون الناس وتجد الواحد اليوم مـع قـلـة بضاعته وغلبة الهـوى عليه ينفرد بنفسه بين جدران أربعة ويخـرج علينا بآراء عجـيبة لا فـقـه فيها ولا بصـيـرة ولا يتـقـي الله فيها ، ويريد أن يحمل الناس عليها. استبداد عـلــمــي مع أنه لا استبداد في العلم فـي الإســلام ، كما أنه لا استبداد في السياسة ، والاسـتـبـداد السياسي والاستبداد العلمي كلاهما مذموم في الإسلام.

معالم على طريق الاجتهاد:

ثم إن الاجتهاد في المسائل الاجتهادية فيما فيه مجال للاجتهاد وإذا وقع من المجتهدين مهما كان الاجتهاد جزئياً أو كلياً على أنواعه التي يذكرها الفقهاء يجب أن لا يؤدي إلى التنازع والتناحر والتطاحن. انظرإلى الصحابة وخذ عمراً مثلاً وهو خليفة أمـيــر المؤمنين كيف كان يناقشه الصحابة ويحتدون ويقولون له هذا ظلم »أتقف ما غنمناه بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا« ، ومع ذلك لا يغضب... نماذج رائعة من أدب الاختلاف.

الاختلاف لدى السلف لا يفضي إلى التنازع والتطاحن ، ولا يفسد للود قضية كـمــا يقول العلماء ، فإن التناحر والتطاحن في الآراء وفي العلم ورمي المخالف في الاجتهادات بالتهم من علامات أهل البدع كالخوارج الذين يكفرون مخالفيهم ، فالمبادرة الى تكفير المخالف في مسائل للاجتهاد فيها مجال ، من علامات الخوارج ، وسب المخالفين ولعنهم والتشنيع عليهم من علامات الروافض ، فعلى كل مسـلم أن يتأدب بهذه الآداب ، على كل مجتهد ، على جميع أهل العلم أن يتأدبوا بهذا الأدب السلفي إن كانوا وقعوا في مسلك أهل البدع من التشنيع على المخالفين ورميهم بالتهم وتبديعهم وتكفيرهم وسبهم

والتشنيع عـلـيـهـم، فعليهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إلى الله ويعودوا إلى منهج السلف.
أما أهل العلم والفقه والاجتهاد من علمائنا على مختلف مستوياتهم ودرجاتهم أكابرهم وأصاغرهم فإننا نطالبهم بأن يواجهوا النوازل التي وقعت بنا والواقعات التي استجدت علـيـنــا ، وما أكثرها وما أخطرها مثلاً ، نحن نواجه الآن في مجتمعنا هجمة علمانية ، هناك من يحاولون علمنة هذا المجتمع ومحاولة صبغه بصبغة العلمانية ، فيدعون للفـصل بين الدين والحياة وبين الفقه والمجتمع ، وهذه نازلة خطيرة جدت في الأمة فالمجـتـمـع المسلم يسير بخطى حثيثة إلى العلمانية بضغوط خارجية وجهود داخلية ، أناس يتكلـمـون بألسنتكم وهــم مــن جلدتكم وهم يبذلون النفس والنفيس في سبيل تخريب هذا المجتـمــع المسلم ، وهذا من أعظم النوازل ، فعلى علمائنا أن يواجهوا هذه النوازل بعقـلـيـة ناضجة كعقلية السلف ، عقلية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، عقلية واعـيــة عميقة تتقي الله عز وجل ، فإن من أعظم ما يواجه به هذا المقام أن يـبـيـن العـلـمـاء الحكم الشرعي لا يخافون في الله لومة لائم ، والحمد لله أنه لاتزال في مجتمعنا بقية من علماء يقولون الحق ولا يخافون لومة لائم ، نسأل الله أن يثيتهم ويجزيهم عنا خير الجزاء.
العالم أو المفتي الذي لا يتقي الله في بيان الحكم ، وينافق العـلـماء ، لا يصلح للاجتهاد ، وهو والجاهل سواء لأنه أخطر من الجاهل ، العالم يقتدى به فإذا لم يتق الله في بيان حكم الشرع يورد الأمة موارد الهلاك ، وهناك علماء للأسف ينافقون الحـكـام أو يخافون منهم ولا يبينون الأحكام على وجهها الصحيح ، ومـــن أعـجـب الأمثلة على ذلك مفت في بلد مسلم أفتى بإباحة الربا إذا مارسته الـدولــة وتحريمه إذا مارسه أفراد الشعب ، انظر إلى أي حد يصل النفاق ومداهنة الحـكــام ، هذا فقيه نعم ولكنه من فقهاء السلطان له سلف ، ذلك المنافق الذي رأى حـمــاماً يلعب به الخليفة فكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، فالحديث الصحيح لا سبق إلا في خف أو حافرأو نصل ، فزاد أو جناح هذا مثل ذاك فأمثال هؤلاء موجودون نسأل الله عز وجل أن يكفينا شرهم.

هـوامـش:

(1)الحديث بنصه البخاري ، ج1 ، ص219.
(2)مسلم ، ج2 ، ص1099 ، كتاب الطلاق ، ح/1472.
(3)المصنف لابن أبي شيبة ، ج9 ، ص362 ، ح/7803.

دراسـات شـرعية

نظـرات في

علم أصول الفقة: الصعوبة والعلاج

محمد عثمان الأخضر شوشان

أصول الفقه أحد العلوم الإسلامية الأصيلة توالت المؤلفات فيه عبر التاريخ ، إلا أن ظاهرة صعوبة هذا العلم ملموسة ، وهذه الرؤية من الكاتب محاولة لعلاج صعوبة هذا العلم.

الـبـيــان

تعتري أصول الفقه جملة من الـمشكلات في جوانب مختلفة منه في مضمونه أحياناً ، وفي منهج دراسة مسائله ، ومناقشة بعضها ، وفي الأسلوب الذي سطر به أحياناً ، وفي منهج تدريسه أحياناً أخرى ، وكلها مشكلات تسببت في قلة الاستفادة من هذا العلم المهم ، لذا فهي بحاجة ماسة للحلول والعلاج من قبل المتخصصين فيه عسى الله عز وجل أن ينفع بها.

وأحاول في هذا المقال إن شاء الله تسليط الضوء على إحدى هذه المشكلات ، محاولاً طرح بعض الحلول لها حسب ما أراه مناسباً.

تتمثل هذه المشكلة في منهج تدريس أصول الفقه ، تلك التي نتـج عنها قضيتان خطيرتان: الأولى عدم فهم أصول الفقه ، والثانية عدم معرفة كيفية الاستفادة منه بعد ذلك.

أما القضية الأولى: فإن طلبة العلم الـشـرعــي في الجامعات والمعاهد المتخصصة بله من هم دونهم يشكون من صعوبة فهم مادة »أصول الفـقـه« وتؤكد نتائج الاختبارات هذه الدعوى في كل فصل دراسي.

أما القضية الثانية: فإن هناك عدداً لا بأس به من طلبة العلم إما لأنهم رزقوا فهماً قوياً ، أو لأنهم بذلوا جهداً مضاعفاً قد أدركوا وفهموا كثيراً من مسائل هذا الفن ولكنهم للأسف الشديد لا يستفيدون من هذا شيئاً في مـمـارسـاتـهـم العلمية ، وذلك لعدم معرفتهم بكيفية الاستفادة من هذا العلم!

إن حل هاتين المشكلتين موزع في نظري بين أطراف ثلاثة هي:

1- طالب العلم.

2- معلم مادة أصول الفقه.

3- المؤسسات العلمية والتعليمية المهتمة بتدريس هذه المادة والاستفادة منها.

أولاً طالب العلم:

إن أهم مسألة ينبغي أن تتوفر لدى طالب العلم تـجــاه هـــذا الفن بعد سلامة القصد هي إدراكه للغرض من دراسته والفائدة المرجوة منه ، ويحصل ذلك بمطالعة ما سطره العلماء في هذا الخصوص ، ويمكن جمع ذلك في ثلاث نقاط:

1- تحصيل ملكة الاستنباط للأحـكـام الشرعية العملية من أدلـتـهـا التفـصـيـلـيـة وملكة الاستنباط هي رأس مال الجهد كما قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني.
2- اسـتـنـبـاط تلـك الأحـكــام على وجه الصحة حسب نظر المجتهد لا في واقع الأمر، وهذا مبتغى ومطلب كل مجـتـهـد صادق مخـلــص ، ورفع الإثم عنه عند الخطأ منوط بسلوكه المنهج القويم في الاجتهاد أي اعتماده قواعده الشرعية ، التي هي أصول الفقه.
3- معرفة سبب الاختلاف في جملة مـــن الفروع الفقهية المختلف فيها بين العلماء إذ إن الاختلاف في القاعدة الأصولية قد يسبب اخـتـــلافاً في أحكام الفروع الفقهية ، مما يمهد ويختصر للطالب أسباب الترجيح.
4- استنباط أحكام النوازل باستخدام دليل القياس أو مقاصد الشريعة.
كما على الطالب أن يستحضر أن أول من ألف فـي هــذا الفن تأليفاً مستقلاً إمام جليل من أئمة أهل السنة والجماعة هو الإمام محمد بن إدريس الـشـافـعـــي رحمه الله مما يؤكد توجيه مسؤولية هذا العلم إلى من ينتمـون إلى هذا المنهج منهج الـسـلــف الصالح تعلماً وتعليماً واستفادة وتجديداً.
إن إدراك طالب العلم لأهمية هذا العلم من خــــلال الوقــوف على أغراضه وفوائده ، ثم مقارنة ذلك بحال كثير ممن تصدروا للفتيا والاجتهاد في أيـامـنــــا هذه سواء أكانوا ممن يدعون الالتزام بالنصوص الشرعية أو ممن يغلبون النظرة العقلية المصلحية على النصوص الشرعية على حد سواء ، وما ترتب على هذا من مفاسد ، لمن أهــم أسباب تنشيط الهمة والجد والاجتهاد لفهم مسائل هذا العلم مهما كانت التضحية كبيرة.

ثانياً معلم مادة »أصول الفقه«:

تنتظم الاقتراحات المتعلقة بالمعلم في هذا الموضوع في مقدمتين: المقدمة الأولى: عُرّف أصول الفقه باعتباره لقباً بأنه (القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية)(1) ، وقد عُرّفت القاعدة بأنها (حكم كلي ينطبق على جزئياته ليتعرف أحكامها منه كقولنا: كل حكم دليل على القياس فهو ثابت)(2).
المقدمة الثانية: هذه القواعد إنما يتوصل إليها لتكون عند عملية الاستنباط (مقدمة كبرى في القياس الحملي أو ملازمة في القياس الاستثنائي ، بعد أن يقـــدم لـهـا بمقدمة صغرى موضوعها جزئي من جزئيات تلك القاعدة ودليل تفصيلي يعرفه الفقيه بـيـســر وسهولة كالأمر بالصلاة في قوله تعالى: ((أقيمو الصلاة)) فيكون بذلك قياساً منطقياً هذه كيفيته:
المقدمة الصغرى: الصلاة مأمور بها في قوله تعالى: ((أقيموا الصلاة)) وهذا دليل تفصيلي.
المقدمة الكبرى: كل مأمور به واجب (وهذه أصولية أو دليل كلي إجمالي).

النتيجة: الصلاة واجبة (وهذه النتيجة حاصلة بإسقاط الحد الأوسط المكرر).
فمن هاتين المقدمتين ندرك أن أصول الفقه في الاصطلاح هو القواعد الكلـيــة نحو (كل أمر للوجوب) التي يتوصل بها المجتهد إلى التعرف على الأحكام الشرعية الفرعية (كوجوب الصلاة) من الأدلة التفصيلية التي هي في هذا المثال قوله تعالى: ((أقـيـمــــوا الـصـلاة)) ، وهكذا...(3).

الاقتراحات المترتبة على هاتين المقدمتين:

1- قيام مدرسي أصول الفقه بتدريسه على أساس ما عرف به سابقاً ، أي عـلــى شـكـل قـواعــد (أحكام كلية... »بحيث تكون القاعدة شكلاً ومضموناً هي موضوع الدرس يتناولها المدرس بالشرح والتفصيل.
2- قيامـهـم كذلك بتدريب الطلاب على كيفية الاستفادة منها عند التطبيق على الصفة المذكورة آنفاً ، مع ذكر الأمثلة الصحيحة الواقعة في مصنفات أهل العلم.

ويطلق على هذا المنهج (تخريج الفروع على الأصول) يستعين المدرس بما ألف فيه ، ومن ذلك: »أصول الشاشي« ، »تخــريج الفروع على الأصول للزنجاني« ، »مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول للتلمساني«،التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للاسنوي«، »القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام« ، وكلها كتب مطبوعة وفي متناول الجميع.
ولهذين الاقتراحين فوائد منها:
1- سهولة حفظ القاعدة واسـتـذكــارهـــا عند الحاجة إليها باعتبارها المقصود الأول من الدرس.
2- يسر الاستفادة منها عند التطبيق كما هـــو مـبـين في ترتيب المقدمات بخلاف ما لو عرضت على شكل بحث مبسوط.
وبهذا إن شاء الله يجد الطالب نفسه أمام سبيل لا غموض فيه ، ولا صعوبة للتوصل إلى حكم شرعي فـي مـسـألة معينة ، ولم يبق منه سوى بذل الجهد في تحديد الأدلة المتعلقة بمسألته.

ثالثاً المؤسسات التعليمية والعلمية:

أرى أن المطلوب من هذه المؤسسات للمساهمة الجادة في حل هذه المشكلة جملة من الأمور:
1- عقد ندوات وجلسات يدعى إليها المتخصصون في هذا العلم لتشخيص المشكلة،ومحاولة تقديم حلول عملية لها.
2- المسارعة في تنفيذ ما توصل إليه أهل الاختصاص في هذا الشأن ونشره تعميماً للفائدة.
3- تكليف الباحثين فـي الـدراســـات العليا ممن تتعلق رسائلهم بالأحكام بوضع فهرس للقواعد الأصولية المذكورة في بحوثـهـم حـتـى يـتـمـكـن غـيـرهــم من التعرف على كيفية استفادتهم من تلك القواعد.

4- على المؤسسات العلمية التي تقوم بإصدار الفتاوى والبحوث وضــع فـهــرس للقواعد الأصولية المذكورة في مجلاتها الدورية للغرض السابق نفسه.
غير أنه بعد قراءة هذه المقترحات يتبادر إلى الذهن سؤال مهم وهو: هل القواعد الأصولية كلها قد صيغت على شكل قواعد؟ وهل هذه الصياغة موحدة بين الأصوليين؟
لا شك أن هاتين المسألتين في غاية من الأهمية بالنسبة لزماننا هـذا عـلـى الأقل ، إذ قد لا تكون بهذه المثابة عند الأوائل لاعتبارات كثيرة ، فليس سهلاً أن يقوم أي طالب أو باحث بـصـيـاغة قاعدة من بعد إدراكه للدرس ، إذ يتطلب هذا العمل الدقيق إحــاطــة بجـمـيـع مـتـعـلـقـات القــاعــدة، وقد لا يتوفر هذا في غير أصحاب التخصص المتمرسين من أساتذة ومجتهدين.
لذا فإنني أقترح أن تقام نـدوات وجـلـســات علمية يدعى إليها هؤلاء لوضع صيغ موحدة للقواعد الأصولية ، ثم نشرها ليتداولها الجميع ، علماً بأن علماءنا الأوائل قد كفونا مؤونة صياغة جملة منها ، وبخاصة القواعد المختلف فـيـهــا ومـظـانـهـا كتب التخريج والأصول وأسباب الاختلاف وبعض كتب القواعد الفقهية ، وكان من منهجهم في صياغتها أن تذكر القاعدة بصيغة السؤال إن كانت مختلفاً فيها وبصفة التقرير إن كانت متفقاً عليها.
وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالـى أن ينفع بهــذه الاقتراحات ، وأن يرزقنا الإخلاص والتوفيق في العلم والعمل.

هـوامـش:

(1)شرح مختصر المنتهى 1/18.
(2)التلويح للتفتازاني 1/20.
(3)أصول الفقه للباحسين 120.

دراسات اقتصادية

المشكلة الاقتصادية وعلاجها من المنظور الإسلامي -2-

د. محمد عبد الله الشـباني

في الحلقة السابقة تطرقنا إلـى جـانب مــن مـعـالـجـة الإسلام لجانب من جوانب المشكلة الاقتصادية ، وهو جانب الندرة ، وفي هذه الحلقة ســوف نـتـطرق إلى الجوانب الأخرى لمعالجة مشكلة الندرة ، وهذا الجانب يتعلق

بدور الدولة في معالجة الندرة من خلال كيفية استغلال الموارد الطبيعية وتنميتها ، أي دور الدولة المسلمة في الـتـأثـيـر عـلـى الإقلال من تأثير قانون الندرة على المشكلة الاقتصادية.
إن مـــن مهمـات الدولة أن تعمل على البحث عن المصادر الطبيعية ، فقد أشرنا في الحلقة السابقة إلـى الحديث الذي رواه أبو يعلى في مسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي -صلى الله علـيـه وسـلـم- الذي جاء فيه: (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض)(1) ، ففي هذا الحديث توجيه نبوي للأفــراد وللحاكم المسلم باعتباره مسؤولاً عن الأمة ، والقاعدة التي يتبعها التشريع الإسلامي هي مخاطـبة الأمـة فصيغت الأوامر كما جاءت في القرآن الكريم موجهة لأفراد الأمة بأجمعهم لكن مـسـؤولـيـة التنفيذ تقع على الحاكم نفسه ، فمن ذلك قوله تعالى: ((ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب))[البقرة: 179] ، وقوله تعالى: ((والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله)) [النور: 2] ، كما يلاحظ ذلك في الأحاديث الـنـبـويــة الشريفة حيث يتوجه الخطاب إلى الأمة ، لكن جهة التنفيذ هم ولاة الأمر ، وعليه فــإن الـتـوجـيـه النبوي في هذا الحديث يقتضي أن تقوم الدولة بالبحث عن مصادر الرزق المخبوءة في باطن الأرض.

الحديث الشريف يوضح العلاج:

إن من وسائل علاج ندرة الموارد وفق ما يشير إليه ذلك الحديث الأمور التالية:
1- ضرورة بذل الجهد من قبل الأمة ممثلة في الحاكم المسلم بالـعـمـــل على البحث عن الموارد الطبيعية ، وتسخير القوى العاملة من الأمة بالعمل على بذل الجـهـــد والمشقـة، فـصـيغة »اطلبوا« توحي بأهمية الحصول على موارد طبيعية جديدة ، أو اكتشاف مجالات جديدة في استغلال الموارد الطبيعية المتاحـة ، مما يقتضي بذل كل جهد ممكن عضلي أو عقلي وبالتالي فإن مشكلة الندرة لن تحل بدون بذل الجهد والعمل ، فالله قد تكفل برزق جميع مخلوقاته ، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ((وما من دابة إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها)) [هود: 6] ، لكن الحصول على هذا الرزق يستدعي بذل الجهد ، كما أنه لا يقتضي كثرة الكمية المتاحة ، ولكن اكتشاف مختلف مجالات الاستخدام للموارد المتاحة يؤدي إلى إشباع حاجات الإنسان.
2- إن مفـهـوم الرزق كما أشار إليه الحديث لا يقتصر على شيء دون آخر بل يشمل كل شيء يحقق إشـبـاع الحاجات سواء أكان الأمر يتعلق بالإنتاج الزراعي ، أو المعدني ، أو غير ذلك ، وبالتالي ضرورة قيام الأمة ممثلة في ولي الأمر بالتنقيب عن مصادر الرزق ، إذ أن المصادر مخبوءة في باطن الأرض ، فإذا تقلصت أو قلت الموارد المتاحة على وجه الأرض فلا يعني ذلك أن الرزق قد انقطع ، والاكتشافات العلمية المعاصرة أكبر دليل على أن الله يفتح في كل يوم على البشر مصادر جديدة من الرزق سواء أكان ذلك من

خلال العثور على موارد جديدة ، أو اكتشاف كميات إضافية ، أو اكتشاف مجالات جديدة لاستخدام الموارد المتاحة ، التي تساعد على إشباع متطلبات الإنسان.
3- يوجه الحديث الانتباه إلى حقيقة مهمة أغفلها المسلمون ولم يهتموا بها وهذه الحقيقة هي أن الأرض مملوءة بالخيرات ، وأن المشكلة تكمن في الإنسان نفسه ، فالأرض تمتلك في باطنها خيرات كثيرة ، وما على الإنسان إلا أن يُعمل فكره ، ويبذل جهده في البحث عن مصادر الرزق في باطن الأرض ، ولن يكون هناك عجز في الموارد لتلبية احتياجات الإنسان إلا إذا كسل الإنسان عن البحث عنها ، أو انحرف فكره وسلوكه في استغلال ما أتاحه الله له من خيرات فصرفها في مجالات مضرة تعود بالشر عليه ، وإن الممارسات المعاصرة من قبل الدول لهي أكبر دليل على أن العجز ليس في الموارد بقدر ما هو في نوعية استغلال الجهد في ما يعود بالضرر على الإنسان نفسه.

ضرورة استغلال الموارد المتاحة:

إن من المسببات لإيجاد الندرة في الحاجات القصور في استغلال الموارد المتاحة ، ولهذا فإن من المهام الأساسية التي ينبغي على ولاة الأمر من المسلمين الاهتمام بها هو استغلال الموارد المتاحة ، وعدم تعطيلها ، تلك التي يمكن من خلالها سد حاجات المجتمع ، وإن ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع يهود خيبر لإشارةٌ واضحة الدلالة على ضرورة استغلال الموارد المتاحة ، فقد روى البخاري والبيهقي في سننه وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعطى خيبر لليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها(2) ، وفي رواية للنسائي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها على أن يعملوها من أموالهم وأن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شطر ما يخرج منها ، وفي حديث آخر رواه البيهقي بسنده عن عبد الله بن أبي بكر قال: جاء بلال ابن الحارث المزني إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستقطعه أرضاً فقطعها له طويلة عريضة ، فلما ولي عمر قال له: يا بلال إنك استقطعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أرضاً طويلة عريضة أقطعها لك وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليمنع شيئاً يسأله ، وإنك لا تطيق ما في يديك ، فقال: أجل قال انظر ما قويت عليه منها فأمسكه وما لم تطق فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين ، فقال: لا أفعل والله شيء اقتطعنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقال عمر: والله لتفعلن ، فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين(3).
من هذين الحديثين نرى اهتمام الإسلام وحرصه على معالجة ندرة الحاجات من خلال العمل على استغلال المتاح منها ، والعمل على الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة وعدم تعطيلها ، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- عمد

إلى عـــلاج الـنـقــص في الأيدي العاملة القادرة على الحرث والزراعة بالاستعانة باليهود على أن يكون للمسـلـمـيـن شــطــراً مما تخرجه الأرض ، وصنع عمر وهو ولي أمر المسلمين مع بلال المزني باستعادته مـــا لـــم يـسـتـطع بلال عمارته مما تم إقطاعه إياه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، يؤكد حقـيـقـة أن معالجــة الندرة في أحد جوانبها هو العمل على استغلال المتاح من المصادر ، وتدخل الـدولـــة حـســب سلطتها لتنفيذ ذلك ، ولهذا نجد الواقع السيئ للمجتمعات الإسلامية في عجزها عن استغلال مواردها وتعطيلها سواء أكان ذلك من خلال التنظيمات والتشريعات المالية والإدارية المعيقة للمبادرات الشخصية ، أو من خلال تبني مناهج في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي تساعد على تعطيل الموارد وجعلها في حالة عجز دائم.

تدخل ولي الأمر للمصلحة العامة:

إن من واجبات الدولة في حالة تعطل مورد من الموارد الطبيعية بسبب عدم قدرة الشخص على التنفيذ لنقص في قدراته المادية أن تتدخل في تنظيم ذلك ، ففي عمل عمر رضي الله عنه باستعادة ما تم إقطاعه واعادة توزيعه على المسلمين ، تنفيذ لهذا الجانب من حيث عدم ترك الأرض غير مستغلة ولهذا فإن من مسؤولية الدولة وضع الأنظمة الإجرائية التي تساعد على استغلال الـمـتاح من الموارد الطبيعية وغيرها ممن يُعجَزُ عن استغلاله بأحـــد عوامل الإنتاج ففي حالة توقف المصانع الإنتاجية لعدم قدرة أصحابها على الإنفاق عليها ، فإن على ولي الأمر التدخل وعدم تعطيل هذه الموارد ، فقد روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الحميدي أن عامر الشعبي حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من وجد دابة قد عجز عنها أهلها أن يعلفوها فسيبوها فأخذها فأحياها فهي له »(4) ، ففي هذا الحديث إرشاد لولي الأمر أن يتدخل في حالة عجز المالكـيـن عن استغلال عنصر من عناصر الإنتاج ، وذلك باستغلاله وفقاً للقاعدة الشرعية »لا ضـــرر ولا ضرار« بحيث يكون لولي الأمر وضع القواعد الإجرائية التي تساعد على تدخــل الدولة في حالة توقف المصانع أو المزارع الكبيرة عن الإنتاج لعجز المالكين عن استـغــلالها ، مراعاة لمصلحة الاقتصاد العام للدولة، مع مراعاة حقوق المالكين ، بشرط عدم تعطلها عن المساهمة في زيادة الناتج القومي.

أساليب تنمية الموارد:

إن من مسببات الندرة المرتبطة بالموارد الطبيعية سوء الأسلوب في استغلال الموارد المتاحة ، بحيث تؤدي إلى ضعف وعجز الموارد عن القدرة على الإنتاج وتوفير الاحتياجات ؛ ولهذا فإن طرق وأساليب اسـتـغـلال الموارد الـطـبـيـعـيــة يلعب دوراً في اضمحلال وتقلص القدرة الإنتاجية للمورد الطبيعي ، ولـقـــد حرص الإسلام على هذا الجانب ، ووردت أحاديث عدة توجه الانتباه إلى هذا الجانب ، وإن على قادة المجتمع المسلم الاهتمام بهذا

الجانب ، ومن تلك الأحاديث ما رواه البيـهـقـي فـي سننه عن علي بن الحسن عن أبيه عن جده قال: قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلـم- المدينة فقال: (يا معشر قريش إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها ، فإنكم بأقل الأرض مطراً ، واحرثوا فإن الحرث مبارك أكثروا فيه من الجماجم(5)) ، وفي حديث آخر رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب أنه قال: نهى عن الحكرة بالبلد ، وعن التلقي وعن السوم قبل طلوع الشمس ، وعن ذبح قني الغنم(6) ، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار« (7).

من هذه الأحاديث يمكن فهم السياسة التي يوجه الإسلام أتباعه إليها فيما يتعلق بأساليب المحافظة على الموارد الطبيعية ، بالعمل على المحافظة على الغطاء النباتي ، وعدم قطع أو إزالة الغطاء الشجري ، والتعامل مع الـمـوارد المتاحة حسب طبيعة البيئة ، واستغلال الموارد وفقاً للظروف البيئية ، ونلاحظ ذلك من توجيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمـهـاجرين من قريش بتغيير نمط الاستثمار من تربية الماشية التي تعتمد على الرعي إلـى الحرث ، حيث أن طبيعة البيئة لا تسمح لهذا النوع من الاستغلال بخلاف البيئة في مكة التي تقوم على الرعي وليس على الزراعة ، كما أن الزراعة في منطقة المدينة أجدى وأكثر فائدة ، ولـهـــذا فـإنــه من الواجب استخدام البدائل والخيارات عند التعامل مع الموارد الطبيعية ، وعدم استنزاف الموارد المنتجة ، والإبقاء عليها من أجل زيادتها كما يرشد إلى ذلك الحديث الذي مـنـــع من ذبح إناث الغنم لما في ذبحها من استنزاف لمورد من الموارد المتاحة لإشباع حاجات الإنـســان ، وينطبق هذا على أي مورد من الموارد المتاحة للإنسان بضرورة العناية بتنمية الموارد الطـبـيعية وزيادتها من خلال حسن الاستغلال.

إن ما توحي به جميع الأحاديث التـي أشــرنا إليها من توجيهات ، لهو مؤشر قوي على مدى حرص الإسلام على معالجة جانب ما يحدث من عجز في توفير الاحتياجات الفردية من خلال معالجة مسببات الندرة المرتبطة بالموارد الطبيعية.

الهوامش :

(1)ذكـر الهيـثـمـي فـي مجمع الزوائد أن ابن حبان ضعفه لأن فيه هشام بن عكرمة ولكن المعنى ودلالات النص يمكن أخذها من عموم نصوص أخرى.
(2)فتح الباري ، ج5 ، ص19 ، باب المزارعة مع اليهود ح/2331.
(3)أخرجه مالك في الموطأ ، والدارمي.
(4)رواه أبو داود ح/3456 ، صحيح سنن أبي داود ح/2950.
(5)الجماجم نوع من المجسـمـــات تشبه الرؤوس توضع بين الزروع والثمار لمنع الطير من أكلها.
(6)قني الغنم أي التي تقتنى للدر والولد ، واحدتها قنوة.

(7)صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ج2 ، ص792 ، ح/4299 ، وصححه الألباني.

خواطر في الدعوة

.. سـددوا وقاربـوا..

مـحـمـد الـعـبـدة

جُبلَ الإنسان على النقص والضعف ، فربما أبرم اليوم أمراً يفكر غداً في نقضه أو إصلاحه وتعديله ، وعندما يضع البشر قانـــوناً من عند أنفسهم لتيسير شؤون حياتهم ، سرعان ما يكتشفون أن فيه ثغرات لابد من إصلاحها ، أو أنه يكبلهم بجزئية من جزئياته ، ومن ثم يبدأ الالتفاف عليه ، أو تفسيره بما يتناسب مع أغراضهم.

نقول هذا لأنه عندما أراد المسلمون فــي هـــذا العصــر ترتيب أمور الدعوة ترتيباً إدارياً ، أخذوا من البيئة التي حولهم ، فكانت هذه (التراتيب) بحــاجــة إلى إعادة النظر بين كل فترة وأخرى ، للبحث عن عيوبها ، وما هي أوجه النقص فيهــا ، ولكـن شيئاً من هذا لم يحدث ، ووجد المسلمون أنفسهم أسرى لقوالب جامدة ، وشكليات صنعتــها أيديهم ، لم يستطيعوا التخلص منها ، وكان الواجب أن يستفيدوا من صياغة التشريع الإســلامي كما أنزله الله سبحانه وتعالى ، لأننا سنجد فيه دائماً مساحة ومرونة لزيادة العمل ، كما نجد فـيــه حداً أدنى وحداً أعلى ، قال تعالى عن حال الدائن والمدين: ((وإن كان ذو عـســـرة فـنظــرة إلـى ميســرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون))[البقرة: 280] والدفاع عن النفس ضد الظلم حـــق ، ولكن التحمل والمغفرة أجمل: ((ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور))[الشورى: 42] ، ((يسألونك ماذا ينفقون قل العفو))[البقرة: 219].

لماذا لم يستفد المسلمون مــن هذه السـنـة في تدبير الخلق ، حتى كان من آثار هذا الجمود والضيق أن عُطلت طاقات، وأهـــدرت إمـكـانات؟ فكم من شاب متحمس أو داعية له قدم راسخة لم يستفد منه لأن طرائق العمل لا تسـتـوعـب الجميع ، ولم يكتف المسلمون أنهم ضعاف في اكتشاف الطاقات الفاعلة ، بل زادوا على ذلك أنهم خسروا كثيراً ممن عندهم خير وعلم ، وقراءة في تاريخ الدعوة الإسلامية المعاصرة تنبئك عن العشرات والمئات الذين لم تستوعبهم الدعوة ، وربما وجدوا أنفسهم أمام طريـق مـسـدود ، فاختار بعضهم القيام بجهود فردية ، ومنهم من أصابه الفتور وآثر العزلة.

يقول بعض المفكرين: »إن من أسباب تقدم الإنجليز على من سواهم من الشعوب الأوروبية في بداية نهضتهم هذه ، المرونة في تنظيماتهم وكل شؤون حياتهم، فـنـراهــم دائـمـاً يتركون مساحة للتحرك من خلالها ومحاولة التخريج والاجتهاد«.

هـــذا مـــا توصلت إليه عقولهم البشرية ، أما المسلمون الذين يحملون فكرة التجديد فهم يسـتـهـدون بالسـيـرة الـنـبوية وأسلوب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في معاملة صحبه الكرام، ويتأملون أسرار نـزول القـــرآن منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة ، وكيف تربى المسلمون من خلال هذا التنزيل ، وإذ فعلوا هذا فإنهم سيصلون إلى نتائج طيبة بإذن الله.

هـموم ثقافيـة

أقوال منسية حول »التغريب«*

د. أحمد إبراهيم خضر

منذ العشرينيات من هذا القرن والباحـثـون الـغـربيون المتخصصون منشغلون بقضايا تغريب العالم الإسلامي بعامة ، وما يسمونه بمنطقة الشـــرق الأوســـط بخاصة ولا يكاد يخلو أي كتاب أو أي مقالة تتعرض لحياة المسلمين من إشارة هنا وأخرى هناك لهذا التغريب ، إلى الدرجة التي حدت بهؤلاء الباحثين إلى القول:

»إن مظاهر التغريب عند شعوب الشرق الأوسـط مشـاهدة تمامـاً وبدرجــة كـافـيـة وإنه لمن السهل عليك أن تضع قائمة طويلة توضح لك كيف أن هذه المظاهر التقليدية التـي كـانـت سائـدة مـنـذ مـائـة أو مـائـة وخمسين عاماً قد اجتاحتها رياح التغيير ، واستبدلتها بقيم أدخلها الغرب«.

لم يكن تغريب المسلمين مسألة متروكة لمجرد الاحتكاك بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ثم متابعة آثار هذا الاحتكاك على الإسلام والمسلمين، إنما كانت سياسة موجهة ومدروسة تسـتـنـد إلى تنظير خاص ، يعتمد في جزء كبير منه على تجارب الاحتكاك بين الإسلام والـغـرب فـي الـمـاضــي ، وعـلـى تجربة الثورة الصناعية وما تلاها من آثار على البناء الاقتصادي والاجتماعي والتقني الـغـربي ، ثم على تحليل مسألة اتساع الهوة بين هاتين الثقافتين بعد الثورة الصناعية؛ بسبب الاستقرار الثقافي في بلاد المسلمين، وتلك التراكمات التي أخذت مكانها في الغرب.

نظرية ومكاسب:

استندت عملية تغريب المسلمين إلى ما يسمى بنظرية (تشويش الأحكام القيمية) أو إيقاع الاضطراب في هذه الأحكام ، وتقوم هذه النظرية على الأساس التالي:

»هناك توازن وتوافق بين عناصر ثقافة المجتمع التقليدي المستقر جيداً ، بمعنى أن القيم التي تحكم وتسود هذا المجتمع تتسق وتؤيد واقعه المعاش ؛ ولهذا تتميز ثـقـافــة هـــذا المجتمع بالتماسك والتوازن الداخلي.

ويـمـكـن للواقع الثقـافي أن يعير وأن يستعير عناصر من ثقافة أخرى مخالفة بصورة أكثر سرعة مــن اسـتـعارة القيم الثقافية ، ولهذا يصعب حدوث تغير في القيم في الوقت الذي يسهل فيه حدوث تغير في الواقع.
وعندما يحدث اتصال بين ثقافتين مختلفتين ، فيدخل واقع جديد إلى إحداهما يمكن هنا أن يتحطم التوازن الـقـديــم ، وتتغير القيم الثقافية بتغير الواقع الذي كانت تحكمه وإن احتاج الأمر إلى بعض الوقت ، بسبب هذه الصلة العاطفية التي يحيط بها المجتمع ثقافته الخاصة ، ومقاومته لإدخال أي محتويات ثقافية غريبة أو جديدة.
وهذا لا يعني بالطبع أن مكونات الواقع في ثقافة ما يمكن أن تزرع في ثقافة أخرى دون أن تسبب تغيرات في قيمها ، أو أن قيم ثقافة ما يمكن أن تفرض على الثقافة الأخرى دون أن تحدث تغيرات في مكونات هــذه الـثـقـافـة ؛ لأن التناسق المحكم والاعتماد المتبادل بين مكونات الواقع والقيم الثقافية يجعل من غير الممكن أن تدخل تغيرات في واحدة منها دون أن تحدث تغيرات في الأخرى«.
بهذه النظرية دخل الغرب إلى حياة الـمسلمين ساعياً بمختلف طاقاته الثقافية والعسكرية والاقتصادية والتقنية إلى إدخال واقع جـديـد يـخـص ثـقـافـتـه هو على ثقافة المسلمين؛ ليـحـطـم الـتـوازن القائم بين واقعها وقيمها ، ويغير من قيمها حتى تصبح مناسبة للواقع الجديد الذي أدخله عليها ، ولقد حقق الغرب هنا مكسبين مهمين: أولهما أنه بتحطيمه لهذا التوازن الـمـشار إليه أوجد هوة عميقة بين الإسلام والمسلمين ، ودمر الصلة العاطفية التي تربط المسلمين بـإسـلامـهـم والمكسب الآخر: أنه وهو يخترق هذه الهوة ليملأ الفراغ المترتب عليها حرك الأمور بالطــريقة التي تمكنه من تحقيق مكاسب مادية ضخمة على حساب هذا الكيان المنهار.
سـنـقـتـصـر في مقالتنا هذه على عرض وتحليل ثلاثة من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين فدمر التوازن القائم في ثقافتهم.

أولا صنع هيبة الغرب:

لم يكن هذا الواقع موجوداً من قبل ، كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تقوم على أساس »الإسلام والكفر،وجاء الغرب وأدخل واقعاً جديداً.. فبعد أن تمكن من إيجاد موطئ لأقدامه في بلاد المسلمين، أحاط نفسه وأهله بهالة من الهيبة والاحترام ، وفرض نفسه على النظام الاجتماعي القائم في بلاد المسلمين، وتقلد الوظائف القيادية، وسـاهـمــت حـكـومات بلاد المسلمين العلمانية في تدعيم هذه الهيبة ؛ بوضع أبناء المستعمر في مواقع قياديـة مـهـمـة وسـمـحـت لهم بالحضور إلى مناسبات وطنية وغير وطنية ، لا يدعى إليها عادة إلا كبار رجالات الدولة وعلية القوم فيها.

وزاد الغرب من هيبته في عيون المسلمين بما أدخله عليهم من صناعات وتكنولوجيا ومعرفة في ميادين مهمة انفرد بها ، وكان نتيجة ذلك أن ظهر الغربيون للمسلمين على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.
وهنا تغيرت القيم فأصبح الغرب وأهله هدفاً مرغوباً يسعى بعض المسلمين للانتفاع به ، كما ينتفعون بصناعاته ومنتجاته ، وسهلت هذه الهيبة عند المسلمين طريق محاكاة أسلوب الحياة والسلوك والأخلاقيات والاتجاهات الغربية ، ثم جاء الانهيار الكبير حينما قلد المسلمون الغربيين في فتورهم نحو دينهم وعدم مبالاتهم به وهو عين ما كان يهدف إليه الغرب.
يقول (روفائيل باتاي) أستاذ علم الإنسان في (دوبسيي كوليج) بفيلاديلفيا وجامعة كولومبيا في الخمسينيات من هذا القرن:
»... بينما تكشــف لـنــا البدايات التقنية للتغريب عن هذا النجاح العالمي الذي حققته ، تأتي هناك عوامل أخرى أبرزها (نظام الهيبة الجديد) الذي تسرب الغربيون عن طريقه إلى قطاعات الناس المختلفة ، وتمكنوا من السيطرة والرقابة على الوظائف المهمة ، وفرضوا أنفسهم على النظام الاجتماعي ، وظهروا للناس على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.
ليس من السهل أن نحلل المكونات المتعددة التي تصنع الهيبة الغربية ، لقد كان عنصر القوة هو العنصر الأكثر أهمية في أيام الاستعمار الأوربي ، إلا أن هذا العنصر قد استبدل الآن بمزيج متعدد المكونات: مثل الثروة ، وتملك الآلات والمعدات الغربية ذات الهيبة ، أو المعرفة الخاصة في ميادين ذات أهمية متزايدة كالطب والزراعة وغيرهما ، وشغل مراكز تحظى بالثقة والنفوذ تمنحها الحكومات المحلية للغربيين ، والسماح لهم بالحضور الحر في مناسبات معينة مثلما يسمح تماماً وبدرجة متساوية للقيادات العليا في الدولة.
إن الهالة والهيبة التي تحيط بالغـربي غلفت ثقافته تماماً ، فأصبح اكتساب الثقافة الغربية نتيجة لذلك هدفاً مرغوباً فيه اجـتـمـاعـيـاً يفوق بدرجة كبيرة الانتفاع المعترف به لمنتجات هذه الثقافة«.
وفي معرض حديثه عن تخلي الـمـسـلـمين عن مناهجهم التقليدية في الطب واتباعهم لمناهج الطب الحديث يقول (باتاي) في وثيقته:
»إن البحث في الأسباب التي أدت إلـى الـتغـيرات في الاتجاهات العقلية التي سادت منذ قرون ، لا يجعلنا نرد هذه التغيرات العقلية إلى الاهتداء المفاجئ إلى التفكير الأكثر عقلانية ولكن إلى (الميل للغرب).. من أين أتى هذا الميل؟!
تكمن الإجابة على هذا السؤال في هذه الـهـيـبة للغربيين وثقافتهم ، إن الهيبة التي يتمتع بها كل شيء غربي في عيون شعوب الشرق الأوسط أوجد فيهم نزوعاً إلى محاكاة كل الطرق الغربية ، إنه أدى إلى رغبة خانعة ليس فـقــط فـي الحصول على المعدات الغربية ، ولكن رغبة في تقليد السلوك والاتجاهات الغربية كذلك. لـقـد قبل الطب الغربي ليس لأنه أظهر أفضلية

ولكن لأنه طب غربي ، تبنى سكان الشرق الأوسـط ازدراء الـغـرب للـمـمـارسـات الـسـحـريــة وغير العلمية ، ليس لأن ذلك له قيمة فحسب ، ولكن لأنه أمر مؤكد جاء به الغرب (المهاب)«.
وعن (اللامـبـالاة) وعــدم الاكـتـراث بالـدين التي قلد فيها المسلمون الغرب يقول (باتاي):
»... وهنا ظهر على المسرح (الغربي) المـحـمــل بالهـيـبة والذي يحتل وضعاً أعلى ويحمل ثقافة تستحضر الرغبة في محاكاتها: أن هؤلاء الأجانب لا ينتمون فقط إلى دين مختلف ، ولكن اتجاهاتهم نحو دينهم المسيحي كانت فاترة فكان من الطبيعي أن يقلد هؤلاء المعجبون بالطرق الغربية من مجموع ما قلدوه الفتور نحو الديـن واللامـبـالاة بــه ، فـأظـهـروا عدم الاهتمام بدينهم هم«.

ثانيا علمنة الأسرة:

ينظر الغربيون إلى الأسرة المسلمة على أنها أسرة ممتدة ، والأسرة الممتدة في المصطلحات الغربية هي الأسرة التي تتكون بنائياً من ثلاثة أجيال أو أكثر ، وتضم الأجداد وأبناءهم غير المتزوجين والمتزوجين (أو بناتهم) وتضم أحفادهم كذلك.
سعى الغربيون نحو علمنة الأسرة المسلمة، وإلـى أن تـكـون الأســرة الـغـربـيـة وأشكالها الاجتماعية هي النموذج الجديد الذي يجب على المسلمين الاقتداء به. عمل الغرب على فصل الأسرة المسلمة عن الدين ، وذلك بكسر قبضة الدين من تلك الأسرة الممتدة وتقليص اعتماد الفرد عليها ، والقضاء على تكامله معها وتدمير سلطة الأب على أولاده ، وانفلات الأبناء من الأسرة ؛ حتى ينفلتوا من الجو الديني العام الذي يحيط بالأسرة ، والنظر إلى كل ذلك على أنه ماض يجب أن يرفض.
يقول (باتاي):ً
»في الوقت الذي كان فيه التأثير المباشر للبعثات التنصيرية على الحياة الدينية في الشرق الأوسط تافهاً ، تميز الغرب بموقفه البارد تجاه الدين لأن الدين في الشرق الأوسط في ظل الـظـروف التقـلـيـديـة هو طريقة كلية للحياة: التنظيمات المهنية هي تنظيمـات دينيـة ، ارتـداء الزي المحلي أمـر يقره الدين الطب والتعليم مهنتان دينيتان ، سلطة الدولة نفسها تقوم على الدين، ليس هناك ترتيب هرمي في الإسلام كما هو في الكنائس المسيحية، وليس هـنــاك قسيس أيضاً ، العديد من سكان الحضر منتظمون في دوائر دينية ، والكثير مـــن الـعـائـلات سواء أكانت في الريف أو الحضر تحظى بتأييد المؤسسات الدينية ، أما أكثر المؤسسات التي تمسك بقبضتها على الفرد فهي الأسرة الممتدة ، اعتماد الفرد على أسرته وتكامـلـه مـعـهـا مسـألـة عالية الأهمية في ثقافة الشرق الأوسط إلى درجة أنها تعد ثقافة القرابة،

الأسرة هنا مؤسســة دينية يعضدها الدين ، أي أن الدين يعضد الأسرة ، وهي بدورها تعضد الدين.
ولما جاء التغريب أحدث انهيــاراً في السلطة الأبوية ، وحطم الأسرة الممتدة وغيّر نظام الاقتصاد العائلي بسبب حركة الهجرة من القرية إلى المدينة إلى نظام اقتصادي يقوم على علاقات غيرشخصية ، أصبحت الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية نموذجاً يحتذى به بين الطبقات العليا والوسطى ، ولم يترتب على هذه الأمور مجرد تغير جوهري في طبيعة الحياة الأسرية ذاتها فقط ، وإنـمـا تـرتـب عليها أهم من ذلك كله وهو (علمنة الأسرة) وابتعادها عن الدين ، فحينما ينفلت الشاب من قبضة أسرته كان يخلف وراءه هذا الجو الديني الهام الذي كان يحيط به فيصبح رفضه لهذا الجو جزءاً من رفضه للماضي ، ولهذه الأسرة التي تحكم قبضتها عليه.

ثالثا الحياد الموجه للمشروعات الاقتصادية والفنية الغربية:

هناك الكثير من المشروعات الاقتصادية والفنية الغربية العاملة في البلاد الإسلامية مهمتها الأساسية استنزاف خيراتها وربطها بالغرب،ولقد حرص الغربيون وهم يدخلون هذا الواقع الجديد إلينا هذه المشروعات على تـجـنـب الخـوض الـمـبـاشـــر في أي موضوعات تتعلق بالعقـيـدة الإســلامية ، وتركوا هذه المهمة للبعثات التنصيرية بالرغــم مـن تـسـلـيـمـهـم بمحدودية عائـدها وللشيوعية لكنهم أي الغربيين أولوا الشيوعية اهتماماً وثقلاً أكبر ، فهي في نظرهم التهديد الحقيقي الخطر على عقيدة المسلمين الذي يمكن أن يطيح بتوازنهم الاجتماعي الثقافي ، وقد تركزت الجهود على إقناع المسلمين بأن الشيوعية لا تتطابق مع الإسلام فـقـط بل إنها التعبير الحقيقي للشكل النقي من الإسلام في أصوله الأولى! ولا يهم هنا أن يكون نـظـام الـحـكـم الـقـائـم فـي بلاد المسلمين شيوعياً بقدر ما يهم تدمير بنائهم الاجتماعي الثقافي الكلي.
يقول (با تاي):
«تميز مدخل الغرب في الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة بصفة خاصة بالاعتناء الشديد بتجنب الخوض في أي قضايا أيديولوجـيــة ، والتركيز على الناحية الفنية فقط بالنسبة للمشروعات الاقتصادية والفنية وما هو على شاكلتها ، دخلت هذه المشروعات إلى الشرق الأوسط عبر الولايات المتحدة والأمم المتحدة ومعها توجيه أساس بعدم التدخل في القيم والأيديولوجيات الخاصة بالبلاد.
لكن الأمر يختلف بالنسبة للبعثات التنصيرية ، فليس أمر الكف عن التدخل الأيديولوجي موضع حرية اختيار هنا ، إلا أنه يجب أن يوضع في الاعتبار رد فعل المجتمع الإسلامي للمحاولات المكشوفة لتنصيره ، لقد نـجـحـت البعثات

التنصيرية في علاج عشرات الآلاف من المسلمين ، كما علمت الآلاف من مرضــى الأطـفـال المسلمين ، وربما أثرت بسلوكياتها ومثلها على النظرة الأخلاقية للعديد من المسلمين، ورغــم ذلك فـــإن الـذيــن تحولوا إلى النصرانية قلة قليلة. إن الدين في الشرق الأوسط يشغل وضعاً محوريــاً فـي بنائه ؛ ولهذا يعـتـبـر التنصير عند المسلمين ردة يترتب عليها أن ينفصل المسلم إذا تنصر عن الأســرة والمجـتـمـع والقيم الثقافية ويتعرض لنبذ أصدقائه والمحيطين به ، وأهم من ذلك كله أن اعتناق الإسلام اعتقاداً ثابتاً لا يهتز والنظرة إليه على أنه الدين الحقيقي يعني أن الردة عنه غباء كامل.

رابعا تغريب النخبة:

عمد الغرب بهذا الواقع الجديد إلى ضرب التوازن المستقر الذي أوجده الإسلام بين طبقات المجتمع الـمختلفـة وإلـى تمزيق الشرايين الحيوية التي تجري بين الطبقات العليا والدنيا وإيجاد تناقضات بينها ، إلى أن ينتهي الأمر بأن تنظر الطبقة العليا إلى الطبقة الدنيا على أنها جماعة من المتخلفين الـبـدائـيـين الذين يمثلون ما يسميه الغرب »بالوجه الفقير لثقافة الإسلام التقليدية«.

وحتى تتسع الهوة بين هاتين الفئتين عمد الغرب إلى ما يلي:

1- تغريب واحتضان الطبقة العليا التي تملك المال الوفير والفرص المتاحة للسفر والاتصال بالغرب وشراء منتجاته وتبني نمط حـياته ، ثم استغلال الدافع الكامن عند الطبقة الدنيا التي تسعى إلى تسلق السلم الاجتماعي لتكـــون قريبة من الطبقة العليا بإتاحة الفرصة لها لاكتساب الخاصية التي تفردت بها هذه الأخيرة.

2- تدمير الجسر الثقافي الذي يربط بين الفئتين السابقتين بتحويل الطبقة العليا إلى جماعة من المستهلكين الشرهين لكل ما هو مستورد وقـــادم من الغرب ، بعد أن كانت هذه الطبقة تستخدم أحسن وأجمل وأفضل القوى الثقافية المتوافرة في الأرض الإسلامية ، لقد كان هذا الاستخدام في حد ذاته أساساً من أسس توحد الطبقة العليا في المجتمع مع باقي الطبقات.

لم يكن تغريب الطبقة العليا إلا أحد أوجه سـلـسـلـــة الواقع الجديد الذي أراد به الغرب ضرب التوازن الاجتماعي المستقر في البلاد الإسلامـيـــة، وهـنـاك وجهان آخران: أولهما إيجاد طبقة جديدة من العمال الحضريين المحرومين ، ولقد جـنـدت هذه الطبقة من المدن ومن الريف ؛ لدفع عجلة التصنيع الفجائي والمفروض الذي أدخلـــه الـغـرب على عالمنا الإسلامـي ، لقد عاشت هذه الطبقة ظروفاً صعبة وقاسية ولم يكن المهم أن تـعـيـش هـــذه الظـــروف فقط ، وإنما كان المهم أن تحرم من الإشباعات العاطفية والروحية التي يمنحها الدين والأسرة الممتدة لأفرادها. كان تجنيد هذه الطبقة من الريف لتحقيق هدف مهم آخر سعى إليه الغرب وهو إيجاد ما يسمى (بثنائية الريف المدينة) حيث القدر الأكبر للمدينة وكل ما قدم منها ويرمز لها ، مع الحط من

قدر الريفيين والعمل على هجرتهم إلى المدينة لتشكيل الطـبـقـة الجديدة وتركيز المهنيين (الغير مهمين) والمثقفين في المدينة على حساب المهنيين الذين تشتد الحاجة إليهم كالأطباء والمهندسين وغيرهم.
هذا هو الوجــه الأول ، أما الوجه الثاني: فقد كان تدعيم الطبقة الوسطى وإضافة فئات أخرى لها تشابه أكثر وأكثر مثيلتها في البلاد الغربية ، ويعهد إليها بمهمة التطوير الثقافي للبلاد لحساب الغرب.

خامسا إدخال الصناعة والتكنولوجيا:

لم يكن التـصـنـيـع (الحــديـث) والتـكـنـولوجيا واقعاً قائماً في بلاد المسلمين فجاء الغرب وأدخلهما عن عمد كواقع جديد بهدف إحداث اضطراب خطير في النسيج المكون لثقافة المسلمين أولاً ، ولضمان تبعية المسلمين له واستنزاف خيراتهم بطريقة عصرية ، لأن الطرق القائمة لا تسعفه في تحقيق هذا الاستنزاف.
دمر الغرب الصناعات المحلية، وقضى على المهن التقليدية، ونشر بضائعه الاستهلاكية ، وأرغم الصنّاع والحرفيين إما على الخروج من الساحة والانـضـمـام إلـى ركـب الـعـمـال الحـضـريـيـن، أو تـعـديل خبرتهم الفنية بحيث ينتجون بضائع ذات نمط غربي يعرف الغرب أنها لن تقوى علـى الـمنافسة أمام بضائعه التي تستخدم التقنية الحديثة العالية الجودة المعدلة وفقاً لأذواق الـمـسلمين ، ثم نافس الغرب بعد ذلك المشروعات الصناعية القائمة ، وأدخل مناهجه الغربية في إنتاج ما يصنع محلياً.
اعتقد المسلمون أنهم وهم يستخدمــون الـمـعدات والتقنية الغربية قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم الاجتماعي ، وأن التغير الذي حدث عندهم بسبب هذا الاستخدام تغير محدود لن يؤثر على قيمهم الأساسية ، ولم يدرك المسلمون وهم في وهم هذا التقدم أن الغرب قد وقف بهم عند حد (طريقة الاستخدام) ولم ولن يـصــل بهـم أبداً إلى (طريقة الإنتاج).. لم يكن المسلمون وهم يستخدمون الصناعة والتقنية الغربية يقفون عند الحدود الشرعية التي تحدد لهم الفرق بين الانتفاع بالثقافة وبين التأثر بهذه الثـقـافـة ، في حين أن الغرب كان يعلم تماماً أن استخدام أي عنصر ثقافي غربي لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى استخدام عنصر آخر ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى تبني طريقة الحياة الغربية ذاتها.
حال الغرب دون تمكين المسلمين من صناعة الآلات التي توجد فيها باقي الصناعات ، فلم توجد لدينا المصانع التي تصنع الآلات من (موتورات) وخلافه ولم تتوفر لدينا آلات من صناعة البلاد تمكننا من صناعة باقي المصانع ، ولقد أعاق الغرب صناعة الآلات في بلاد المسلمين بحجة أنها تحتاج إلى وقت طويل وأنه لابد لنا من صناعة الحاجات الأساسية ، فانصرف المسلمون إلى الصناعات الاستهلاكية وأصبحت بلادهم سوقاً لمصانع أوربا وأمريكا ، وأرسلت أكثر البعثات إلى الخارج لا لتعلم صناعة الهـنـدســة الثقيلة وصناعة الفولاذ ،

ولكن لدراسة الآداب واللغويات والعلوم الإنسانية والاجـتـمـاعـيــة التي توسع الهوة بين المسلمين وثقافتهم ، فانصرفت البلاد إلى صناعة المنسوجات والــورق وخـــــام الحـريـر ، وأهملت صناعة الآلات.
وبدلاً من استقدام خبراء صناعة الآلات استقدمت الخادمات والمربيات الأجنبيات ، صاغ الـغـرب لنا كتبنا خاصة في النمو الاقتصادي ، فجعلنا نعتقد أننا لابد وأن نسير في عدة مراحـــــل وبشروط معينة حتى نصل إلى مرحلة التقدم فأطال أمامنا أمل تسلم زمام رأس الصناعة ومنبعها وهو (صناعة الآلات).
أجبرنا الغرب على شراء المصانع والآلات منه وبثمن باهظ ، وإذا أصيبت الآلات بعطب أو كسر اضطررنا لاستقدام خبرائه لإصلاحها أو استيراد الآلة منه وإلا تعطلت المصانع كلية.
لم تكن لـبــلاد المسلمين سياسة اقتصادية محددة في أن تكون هذه البلاد (صناعية) بمعنى (أن تـصـنـع الآلات)، ولـهـــذا لم تخلص بلادنا حتى الآن ولم تستغنِ عن الغرب لكنها أصبحت بدلا من ذلك أكثر ارتـبـاطـــاً به وبمنتجاته وآلاته والأهم من ذلك كله بطريقة الحياة الغربية.
يقول (باتاي):
مــا أن وجـــــد الـغـربـيـون لأنفـسـهــم قدماً في قلب الشرق الأوسط حتى بدأوا في إظهار (تكنولوجيتهم) ونشر مظاهر معينة منهــا عمداً وعرضاً بين السكان المحليين. إن المظاهر التكنولوجية للثقافة هو إيسر ما يمكن أن يستعار، وهـــــذا صحـيـح فقط عند النظر إلى (استخدام) المنتج التكنولوجي وليس (إنتاجه). إنه يصعب عليك أن تصنع مضخة مياه تعمل بمحرك لكنك تستطيع في دقائق قليلة أن تتعلم كيف تستخدمها، وأن تتعرف على مزاياها التي تفوق استخدامك للأسلوب القديم لرفع المياه عن طريق (الشادوف).
إن قبول سكان الشرق الأوسط للتكنولوجيا الغربية بالإضافة إلى إمكانيات نقلها ووظيفتها الكبرى كمؤشر هام للتقدم ، قد تيسر بواسطة حقيقة مؤداها أنها لا تشغل وضعاً مهماً في ثقافتهم الخاصة.. وبمعنى آخر إن شعوب الشرق الأوسط مثل أصحاب أي ثقافات أخرى لم ترَ أن مـجـــرد التحول إلى استخدام المعدات الغربية يعنى أن قيمهم الأساسية سوف تتأثر، بل رأت أنه مجرد تغير ذو أهمية قليلة ، وأخيراً أدركت بعد أن فات الأوان أن قبول أي عنصر ثـقـافـي غربي منفرد يؤدي إلى قبول عناصر أخرى أكثر وأحدث فتكون النتيجة إحداث اضطراب خطير في النسيج الحيوي المكون لثقافتهم التقليدية.
إن مقارنة نمو التصنيع الغـربـي بتصنيع الشرق الأوسط يبين لنا أن تصنيع الأخير كان محدوداً وفجائياً ، بالإضافة إلـى أنــه مفروض من الخارج ، ولم ينمو عضوياً في بيئته المحلية ، ولهذا كان من المحتمل أن يـصـاحـــب بتوترات قاتلة يترتب عليها انهيار الأشكال التقليدية من التفاعل الاجتماعي الذي تمـيـزه الـعـلاقات الشخصية والأسرية وانتشار المكانات الموجهة قرابياً

، وتحوله إلى الأشكال الغربية من التفاعل الاجتماعي الذي يقوم على العلاقات غير الشخصية«.
هذه خمسة عناصر من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين لتغريبهم وتدمير التوازن القائم في ثقافتهم ، وتندرج جهـــود الغرب هذه تحت قوله عز وجل ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفَاراْ حسداْ من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق))(1) ، وتشير الوقائع السابقة إلـى أن الغـرب قد نجح إلى حد بعيد في جهوده تلك رغم التحذير الذي وجهه الله عز وجل للمسلمـيــن من اتباع سبيل الكافرين كما جاء في قوله تعالى: ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم))(2)، وقوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بـعــض ومن يتولهم منكم فإنه منهم))(3) وقـولـه تعالى: ((لا تجـد قوما يؤمـنون بالله واليـوم الآخــــــر يـوآدون من حــــاد الله ورسوله))(4)... إلى غير ذلك من الآيات.
لكن نجاح الغرب في تغريب المسلمين لم يكن راجعاً إى كفاءة تنظيره المدروس الذي أسماه (تـشـويـش الأحكام القيمية) ، فليس هذا التنظير كما يخيل للبعض بجهد إبداعي خلاق يضيف هيبة أخرى إلى هيبة الغرب الحالية في عيون المسلمين. إن هذا الجهد يتضاءل أمام قاعدة ابن تيمية ٍ رحمه الله التي يقول فيها: »إن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين الـمـتـشـابهين يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية.. فإن إفضاء هذا النوع من الموالاة أكثر وأشد والمحبة والموالاة لهم أي اليهود والنصارى تنافي الإيمان««.

ويرجع نجاح الغرب في تغريب المسلمين إلى سببين أساسين:

الأول: أن هذا هو قضاء الله عز وجل النافذ فيما أخبر به رسوله -صلى الله عليه وسلم- مما سبق في علمه ، فـقـد قال -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا مـجــر الضــب لدخـلـتـمـوه ، قال يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال فمن؟)(5).
الثاني: ضعف إيمان المسلمين: الله سـبـحـانــه وتعالـى ضـمـن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علماً وعملاً ، يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: »فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم فهم جعلوا عليهـــمْ السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى ، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مَكْفيٌ مدفوع عـنــه بالـذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباتـه ظاهراً وباطناً.. وقـد قال الله تعالى للمؤمنين ((ولا تـهـنـوا ولا تحـزنوا وأنتـم الأعـلون إن كنتـم

مؤمـنين))(6) ، وقال تعالى: ((فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم)) (7).
فـهـذا الضـمــان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذا كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره.

الهوامش :

*انظر تفصيلا: RAPHAEL PATAI, THE DYNAMICS OF WESTERNIXATION THE MIDDLEEAST JOURNAL, V. 9 NO. 1, WINTER 1955 , PP. 1-16.
(1)سورة البقرة ، آية 109.
(2)سورة النساء ، آية 115.
(3)سورة المائدة ، آية 51.
(4)سورة المجادلة ، آية 22.
(5)أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، وابن ماجة ، كتاب الفتن.
(6)سورة آل عمران ، آية 139.
(7)سورة محمد ، آية 35.

هـمـوم ثقافـيـة

أقوال منسية حول »التغريب«*

د. أحمد إبراهيم خضر

منذ العشرينيات من هذا القرن والباحـثـون الـغـربيون المتخصصون منشغلون بقضايا تغريب العالم الإسلامي بعامة ، وما يسمونه بمنطقة الشـــرق الأوســـط بخاصة ولا يكاد يخلو أي كتاب أو أي مقالة تتعرض لحياة المسلمين من إشارة هنا وأخرى هناك لهذا التغريب ، إلى الدرجة التي حدت بهؤلاء الباحثين إلى القول:
»إن مظاهر التغريب عند شعوب الشرق الأوسـط مشـاهدة تمامـاً وبدرجــة كـافـيـة وإنه لمن السهل عليك أن تضع قائمة طويلة توضح لك كيف أن هذه المظاهر التقليدية التي كـانـت سائـدة مـنـذ مـائـة أو مـائـة وخمسين عاماً قد اجتاحتها رياح التغيير ، واستبدلتها بقيم أدخلها الغرب«.
لم يكن تغريب المسلمين مسألة متروكة لمجرد الاحتكاك بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ثم متابعة آثار هذا الاحتكاك على الإسلام والمسلمين، إنما كانت سياسة موجهة ومدروسة تسـتـنـد إلى تنظير خاص ، يعتمد في جزء كبير منه على تجارب الاحتكاك بين الإسلام والـغـرب فـي الـمـاضــي ، وعـلـى تجربة الثورة الصناعية وما تلاها من آثار على البناء الاقتصادي والاجتماعي والتقني الـغـربي ، ثم على تحليل مسألة اتساع الهوة بين هاتين الثقافتين بعد الثورة الصناعية؛ بسبب الاستقرار الثقافي في بلاد المسلمين، وتلك التراكمات التي أخذت مكانها في الغرب.

نظرية ومكاسب:

استندت عملية تغريب المسلمين إلى ما يسمى بنظرية (تشويش الأحكام القيمية) أو إيقاع الاضطراب في هذه الأحكام ، وتقوم هذه النظرية على الأساس التالي:

»هناك توازن وتوافق بين عناصر ثقافة المجتمع التقليدي المستقر جيداً ، بمعنى أن القيم التي تحكم وتسود هذا المجتمع تتسق وتؤيد واقعه المعاش ؛ ولهذا تتميز ثـقـافــة هــذا المجتمع بالتماسك والتوازن الداخلي.

ويـمـكـن للواقع الثقـافي أن يعير وأن يستعير عناصر من ثقافة أخرى مخالفة بصورة أكثر سرعة مــن اسـتـعارة القيم الثقافية ، ولهذا يصعب حدوث تغير في القيم في الوقت الذي يسهل فيه حدوث تغير في الواقع.

وعندما يحدث اتصال بين ثقافتين مختلفتين ، فيدخل واقع جديد إلى إحداهما يمكن هنا أن يتحطم التوازن الـقـديــم ، وتتغير القيم الثقافية بتغير الواقع الذي كانت تحكمه وإن احتاج الأمر إلى بعض الوقت ، بسبب هذه الصلة العاطفية التي يحيط بها المجتمع ثقافته الخاصة ، ومقاومته لإدخال أي محتويات ثقافية غريبة أو جديدة.

وهذا لا يعني بالطبع أن مكونات الواقع في ثقافة ما يمكن أن تزرع في ثقافة أخرى دون أن تسبب تغيرات في قيمها ، أو أن قيم ثقافة ما يمكن أن تفرض على الثقافة الأخرى دون أن تحدث تغيرات في مكونات هــذه الـثـقـافـة ؛ لأن التناسق المحكم والاعتماد المتبادل بين مكونات الواقع والقيم الثقافية يجعل من غير الممكن أن تدخل تغيرات في واحدة منها دون أن تحدث تغيرات في الأخرى«.

بهذه النظرية دخل الغرب إلى حياة الـمسلمين ساعياً بمختلف طاقاته الثقافية والعسكرية والاقتصادية والتقنية إلى إدخال واقع جـديـد يـخـص ثـقـافـتـه هو على ثقافة المسلمين؛ ليـحـطـم الـتـوازن القائم بين واقعها وقيمها ، ويغير من قيمها حتى تصبح مناسبة للواقع الجديد الذي أدخله عليها ، ولقد حقق الغرب هنا مكسبين مهمين: أولهما أنه بتحطيمه لهذا التوازن الـمـشار إليه أوجد هوة عميقة بين الإسلام والمسلمين ، ودمر الصلة العاطفية التي تربط المسلمين بـإسـلامـهـم والمكسب الآخر: أنه وهو يخترق هذه الهوة ليملأ الفراغ المترتب عليها حرك الأمور بالطــريقة التي تمكنه من تحقيق مكاسب مادية ضخمة على حساب هذا الكيان المنهار.

سـنـقـتـصـر في مقالتنا هذه على عرض وتحليل ثلاثة من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين فدمر التوازن القائم في ثقافتهم.

أولا صنع هيبة الغرب:

لم يكن هذا الواقع موجوداً من قبل ، كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تقوم على أساس »الإسلام والكفر،وجاء الغرب وأدخل واقعاً جديداً.. فبعد أن تمكن من إيجاد موطئ لأقدامه في بلاد المسلمين، أحاط نفسه وأهله بهالة من الهيبة والاحترام ، وفرض نفسه على النظام الاجتماعي القائم في بلاد المسلمين، وتقلد الوظائف القيادية، وسـاهـمــت حـكـومات بلاد المسلمين العلمانية في تدعيم هذه الهيبة ؛ بوضع أبناء المستعمر في مواقع قياديـة مـهـمـة وسـمـحـت لهم بالحضور إلى مناسبات وطنية وغير وطنية ، لا يدعى إليها عادة إلا كبار رجالات الدولة وعلية القوم فيها.

وزاد الغرب من هيبته في عيون المسلمين بما أدخله عليهم من صناعات وتكنولوجيا ومعرفة في ميادين مهمة انفرد بها ، وكان نتيجة ذلك أن ظهر الغربيون للمسلمين على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

وهنا تغيرت القيم فأصبح الغرب وأهله هدفاً مرغوباً يسعى بعض المسلمين للانتفاع به ، كما ينتفعون بصناعاته ومنتجاته ، وسهلت هذه الهيبة عند المسلمين طريق محاكاة أسلوب الحياة والسلوك والأخلاقيات والاتجاهات الغربية ، ثم جاء الانهيار الكبير حينما قلد المسلمون الغربيين في فتورهم نحو دينهم وعدم مبالاتهم به وهو عين ما كان يهدف إليه الغرب.

يقول (روفائيل باتاي) أستاذ علم الإنسان في (دوبسيي كوليج) بفيلاديلفيا وجامعة كولومبيا في الخمسينيات من هذا القرن:

»... بينما تكشــف لـنــا البدايات التقنية للتغريب عن هذا النجاح العالمي الذي حققته ، تأتي هناك عوامل أخرى أبرزها (نظام الهيبة الجديد) الذي تسرب الغربيون عن طريقه إلى قطاعات الناس المختلفة ، وتمكنوا من السيطرة والرقابة على الوظائف المهمة ، وفرضوا أنفسهم على النظام الاجتماعي ، وظهروا للناس على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

ليس من السهل أن نحلل المكونات المتعددة التي تصنع الهيبة الغربية ، لقد كان عنصر القوة هو العنصر الأكثر أهمية في أيام الاستعمار الأوربي ، إلا أن هذا العنصر قد استبدل الآن بمزيج متعدد المكونات: مثل الثروة ، وتملك الآلات والمعدات الغربية ذات الهيبة ، أو المعرفة الخاصة في ميادين ذات أهمية متزايدة كالطب والزراعة وغيرهما ، وشغل مراكز تحظى بالثقة والنفوذ تمنحها الحكومات المحلية للغربيين ، والسماح لهم بالحضور الحر في مناسبات معينة مثلما يسمح تماماً وبدرجة متساوية للقيادات العليا في الدولة.

إن الهالة والهيبة التي تحيط بالغـربي غلفت ثقافته تماماً ، فأصبح اكتساب الثقافة الغربية نتيجة لذلك هدفاً مرغوباً فيه اجـتـمـاعـيـاً يفوق بدرجة كبيرة الانتفاع المعترف به لمنتجات هذه الثقافة«.

وفي معرض حديثه عن تخلي الـمـسـلـمين عن مناهجهم التقليدية في الطب واتباعهم لمناهج الطب الحديث يقول (باتاي) في وثيقته:

»إن البحث في الأسباب التي أدت إلـى الـتغـيرات في الاتجاهات العقلية التي سادت منذ قرون ، لا يجعلنا نرد هذه التغيرات العقلية إلى الاهتداء المفاجئ إلى التفكير الأكثر عقلانية ولكن إلى (الميل للغرب).. من أين أتى هذا الميل؟!
تكمن الإجابة على هذا السؤال في هذه الـهـيـبة للغربيين وثقافتهم ، إن الهيبة التي يتمتع بها كل شيء غربي في عيون شعوب الشرق الأوسط أوجد فيهم نزوعاً إلى محاكاة كل الطرق الغربية ، إنه أدى إلى رغبة خانعة ليس فـقــط فـي الحصول على المعدات الغربية ، ولكن رغبة في تقليد السلوك والاتجاهات الغربية كذلك. لـقـد قبل الطب الغربي ليس لأنه أظهر أفضلية ولكن لأنه طب غربي ، تبنى سكان الشرق الأوســط ازدراء الـغـرب لـلـمـمـارسـات السـحـريــة وغير العلمية ، ليس لأن ذلك له قيمة فحسب ، ولكن لأنه أمر مؤكد جاء به الغرب (المهاب)«.
وعن (اللامـبـالاة) وعــدم الاكـتـراث بالـدين التي قلد فيها المسلمون الغرب يقول (باتاي):
»... وهنا ظهر على المسرح (الغربي) المـحـمــل بالهـيـبة والذي يحتل وضعاً أعلى ويحمل ثقافة تستحضر الرغبة في محاكاتها: أن هؤلاء الأجانب لا ينتمون فقط إلى دين مختلف ، ولكن اتجاهاتهم نحو دينهم المسيحي كانت فاترة فكان من الطبيعي أن يقلد هؤلاء المعجبون بالطرق الغربية من مجموع ما قلدوه الفتور نحو الديـن واللامـبـالاة بــه ، فـأظـهـروا عدم الاهتمام بدينهم هم«.

ثانيا علمنة الأسرة:

ينظر الغربيون إلى الأسرة المسلمة على أنها أسرة ممتدة ، والأسرة الممتدة في المصطلحات الغربية هي الأسرة التي تتكون بنائياً من ثلاثة أجيال أو أكثر ، وتضم الأجداد وأبناءهم غير المتزوجين والمتزوجين (أو بناتهم) وتضم أحفادهم كذلك.
سعى الغربيون نحو علمنة الأسرة المسلمة، وإلـى أن تـكـون الأســرة الـغـربـيـة وأشكالها الاجتماعية هي النموذج الجديد الذي يجب على المسلمين الاقتداء به. عمل الغرب على فصل الأسرة المسلمة عن الدين ، وذلك بكسر قبضة الدين من تلك الأسرة الممتدة وتقليص اعتماد الفرد عليها ، والقضاء على تكامله معها وتدمير سلطة الأب على أولاده ، وانفلات الأبناء من الأسرة ؛ حتى ينفلتوا من الجو الديني العام الذي يحيط بالأسرة ، والنظر إلى كل ذلك على أنه ماض يجب أن يرفض.
يقول (باتاي)ً:
»في الوقت الذي كان فيه التأثير المباشر للبعثات التنصيرية على الحياة الدينية في الشرق الأوسط تافهاً ، تميز الغرب بموقفه البارد تجاه الدين لأن الدين في الشرق الأوسط في ظل الـظـروف التقـلـيـديـة هو طريقة كلية

للحياة: التنظيمات المهنية هي تنظيمـات دينيـة ، ارتـداء الزي المحلي أمـر يقره الدين الطب والتعليم مهنتان دينيتان ، سلطة الدولة نفسها تقوم على الدين، ليس هناك ترتيب هرمي في الإسلام كما هو في الكنائس المسيحية، وليس هـنــاك قسيس أيضاً ، العديد من سكان الحضر منتظمون في دوائر دينية ، والكثير مـــن الـعـائـلات سواء أكانت في الريف أو الحضر تحظى بتأييد المؤسسات الدينية ، أما أكثر المؤسسات التي تمسك بقبضتها على الفرد فهي الأسرة الممتدة ، اعتماد الفرد على أسرته وتكامـلـه مـعـهـا مسـألـة عالية الأهمية في ثقافة الشرق الأوسط إلى درجة أنها تعد ثقافة القرابة، الأسرة هنا مؤسـســة دينية يعضدها الدين ، أي أن الدين يعضد الأسرة ، وهي بدورها تعضد الدين.

ولما جاء التغريب أحدث انهـيــاراً في السلطة الأبوية ، وحطم الأسرة الممتدة وغيّر نظام الاقتصاد العائلي بسبب حركة الهجرة من القرية إلى المدينة إلى نظام اقتصادي يقوم على علاقات غيرشخصية ، أصبحت الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية نموذجاً يحتذى به بين الطبقات العليا والوسطى ، ولم يترتب على هذه الأمور مجرد تغير جوهري في طبيعة الحياة الأسرية ذاتها فقط ، وإنـمــا تـرتـب عليها أهم من ذلك كله وهو (علمنة الأسرة) وابتعادها عن الدين ، فحينما ينفلت الشاب من قبضة أسرته كان يخلف وراءه هذا الجو الديني الهام الذي كان يحيط به فيصبح رفضه لهذا الجو جزءاً من رفضه للماضي ، ولهذه الأسرة التي تحكم قبضتها عليه.

ثالثا الحياد الموجه للمشروعات الاقتصادية والفنية الغربية:

هناك الكثير من المشروعات الاقتصادية والفنية الغربية العاملة في البلاد الإسلامية مهمتها الأساسية استنزاف خيراتها وربطها بالغرب،ولقد حرص الغربيون وهم يدخلون هذا الواقع الجديد إلينا هذه المشروعات على تـجـنـب الخـوض الـمـبـاشـــر في أي موضوعات تتعلق بالعقـيـدة الإسـلامية ، وتركوا هذه المهمة للبعثات التنصيرية بالرغــم مـن تـسـلـيـمـهـم بمحدودية عائـدها وللشيوعية لكنهم أي الغربيين أولوا الشيوعية اهتماماً وثقلاً أكبر ، فهي في نظرهم التهديد الحقيقي الخطر على عقيدة المسلمين الذي يمكن أن يطيح بتوازنهم الاجتماعي الثقافي ، وقد تركزت الجهود على إقناع المسلمين بأن الشيوعية لا تتطابق مع الإسلام فـقـط بل إنها التعبير الحقيقي للشكل النقي من الإسلام في أصوله الأولى! ولا يهم هنا أن يكون نـظـام الـحـكـم الـقـائـم فـي بلاد المسلمين شيوعياً بقدر ما يهم تدمير بنائهم الاجتماعي الثقافي الكلي.

يقول (با تاي):

»تميز مدخل الغرب في الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة بصفة خاصة بالاعتناء الشديد بتجنب الخوض في أي قضايا أيديولوجـيــة ، والتركيز على الناحية الفنية فقط بالنسبة للمشروعات الاقتصادية والفنية وما هو على شاكلتها ، دخلت هذه المشروعات إلى الشرق الأوسط عبر الولايات المتحدة والأمم المتحدة ومعها توجيه أساس بعدم التدخل في القيم والأيديولوجيات الخاصة بالبلاد.
لكن الأمر يختلف بالنسبة للبعثات التنصيرية ، فليس أمر الكف عن التدخل الأيديولوجي موضع حرية اختيار هنا ، إلا أنه يجب أن يوضع في الاعتبار رد فعل المجتمع الإسلامي للمحاولات المكشوفة لتنصيره ، لقد نـجـحـت البعثات التنصيرية في علاج عشرات الآلاف من المسلمين ، كما علمت الآلاف من مرضــى الأطـفـال المسلمين ، وربما أثرت بسلوكياتها ومثلها على النظرة الأخلاقية للعديد من المسلمين، ورغــم ذلـك فـــإن الـذيــن تحولوا إلى النصرانية قلة قليلة. إن الدين في الشرق الأوسط يشغل وضعاً محوريــاً فـي بنائه ؛ ولهذا يعـتـبـر التنصير عند المسلمين ردة يترتب عليها أن ينفصل المسلم إذا تنصر عن الأســرة والمجـتمـع والقيم الثقافية ويتعرض لنبذ أصدقائه والمحيطين به ، وأهم من ذلك كله أن اعتناق الإسلام اعتقاداً ثابتاً لا يهتز والنظرة إليه على أنه الدين الحقيقي يعني أن الردة عنه غباء كامل.

رابعا تغريب النخبة:

عمد الغرب بهذا الواقع الجديد إلى ضرب التوازن المستقر الذي أوجده الإسلام بين طبقات المجتمع الـمختلفـة وإلـى تمزيق الشرايين الحيوية التي تجري بين الطبقات العليا والدنيا وإيجاد تناقضات بينها ، إلى أن ينتهي الأمر بأن تنظر الطبقة العليا إلى الطبقة الدنيا على أنها جماعة من المتخلفين الـبـدائـيـيـن الذين يمثلون ما يسميه الغرب »بالوجه الفقير لثقافة الإسلام التقليدية«.

وحتى تتسع الهوة بين هاتين الفئتين عمد الغرب إلى ما يلي:

1- تغريب واحتضان الطبقة العليا التي تملك المال الوفير والفرص المتاحة للسفر والاتصال بالغرب وشراء منتجاته وتبني نمط حـياته ، ثم استغلال الدافع الكامن عند الطبقة الدنيا التي تسعى إلى تسلق السلم الاجتماعي لتكــون قريبة من الطبقة العليا بإتاحة الفرصة لها لاكتساب الخاصية التي تفردت بها هذه الأخيرة.
2- تدمير الجسر الثقافي الذي يربط بين الفئتين السابقتين بتحويل الطبقة العليا إلى جماعة من المستهلكين الشرهين لكل ما هو مستورد وقـــادم من الغرب ، بعد أن كانت هذه الطبقة تستخدم أحسن وأجمل وأفضل القوى الثقافية المتوافرة في الأرض الإسلامية ، لقد كان هذا الاستخدام في حد ذاته أساساً من أسس توحد الطبقة العليا في المجتمع مع باقي الطبقات.

لم يكن تغريب الطبقة العليا إلا أحد أوجه سـلـسـلــة الواقع الجديد الذي أراد به الغرب ضرب التوازن الاجتماعي المستقر في البلاد الإسلامـيــة، وهـنـاك وجهان آخران: أولهما إيجاد طبقة جديدة من العمال الحضريين المحرومين ، ولقد جـنـدت هذه الطبقة من المدن ومن الريف ؛ لدفع عجلة التصنيع الفجائي والمفروض الذي أدخـلــه الـغـرب على عالمنا الإسلامـي ، لقد عاشت هذه الطبقة ظروفاً صعبة وقاسية ولم يكن المهم أن تـعـيـش هــذه الظــروف فقط ، وإنما كان المهم أن تحرم من الإشباعات العاطفية والروحية التي يمنحها الدين والأسرة الممتدة لأفرادها. كان تجنيد هذه الطبقة من الريف لتحقيق هدف مهم آخر سعى إليه الغرب وهو إيجاد ما يسمى (بثنائية الريف المدينة) حيث القدر الأكبر للمدينة وكل ما قدم منها ويرمز لها ، مع الحط من قدر الريفيين والعمل على هجرتهم إلى المدينة لتشكيل الطـبـقـة الجديدة وتركيز المهنيين (الغير مهمين) والمثقفين في المدينة على حساب المهنيين الذين تشتد الحاجة إليهم كالأطباء والمهندسين وغيرهم.
هذا هو الوجــه الأول ، أما الوجه الثاني: فقد كان تدعيم الطبقة الوسطى وإضافة فئات أخرى لها تشابه أكثر وأكثر مثيلتها في البلاد الغربية ، ويعهد إليها بمهمة التطوير الثقافي للبلاد لحساب الغرب.

خامسا إدخال الصناعة والتكنولوجيا:

لم يكن التـصـنـيـع (الحــديـث) والتـكـنـولوجيا واقعاً قائماً في بلاد المسلمين فجاء الغرب وأدخلهما عن عمد كواقع جديد بهدف إحداث اضطراب خطير في النسيج المكون لثقافة المسلمين أولاً ، ولضمان تبعية المسلمين له واستنزاف خيراتهم بطريقة عصرية ، لأن الطرق القائمة لا تسعفه في تحقيق هذا الاستنزاف.
دمر الغرب الصناعات المحلية، وقضى على المهن التقليدية، ونشر بضائعه الاستهلاكية ، وأرغم الصنّاع والحرفيين إما على الخروج من الساحة والانـضـمـام إلـى ركـب الـعـمـال الـحـضـريـيـن، أو تـعـديل خبرتهم الفنية بحيث ينتجون بضائع ذات نمط غربي يعرف الغرب أنها لن تقوى علـى الـمنافسة أمام بضائعه التي تستخدم التقنية الحديثة العالية الجودة المعدلة وفقاً لأذواق الـمـسلمين ، ثم نافس الغرب بعد ذلك المشروعات الصناعية القائمة ، وأدخل مناهجه الغربية في إنتاج ما يصنع محلياً.
اعتقد المسلمون أنهم وهم يستخدمــون الـمـعدات والتقنية الغربية قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم الاجتماعي ، وأن التغير الذي حدث عندهم بسبب هذا الاستخدام تغير محدود لن يؤثر على قيمهم الأساسية ، ولم يدرك المسلمون وهم في وهم هذا التقدم أن الغرب قد وقف بهم عند حد (طريقة الاستخدام) ولم ولن يـصــل بهـم أبداً إلى (طريقة الإنتاج).. لم يكن المسلمون وهم يستخدمون الصناعة والتقنية الغربية يقفون عند الحدود الشرعية التي تحدد لهم الفرق بين الانتفاع بالثقافة وبين التأثر بهذه الـثـقـافـة ، في حين أن

الغرب كان يعلم تماماً أن استخدام أي عنصر ثقافي غربي لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى استخدام عنصر آخر ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى تبني طريقة الحياة الغربية ذاتها.
حال الغرب دون تمكين المسلمين من صناعة الآلات التي توجد فيها باقي الصناعات ، فلم توجد لدينا المصانع التي تصنع الآلات من (موتورات) وخلافه ولم تتوفر لدينا آلات من صناعة البلاد تمكننا من صناعة باقي المصانع ، ولقد أعاق الغرب صناعة الآلات في بلاد المسلمين بحجة أنها تحتاج إلى وقت طويل وأنه لابد لنا من صناعة الحاجات الأساسية ، فانصرف المسلمون إلى الصناعات الاستهلاكية وأصبحت بلادهم سوقاً لمصانع أوربا وأمريكا ، وأرسلت أكثر البعثات إلى الخارج لا لتعلم صناعة الهـنـدسـة الثقيلة وصناعة الفولاذ ، ولكن لدراسة الآداب واللغويات والعلوم الإنسانية والاجـتـمـاعـيـة التي توسع الهوة بين المسلمين وثقافتهم ، فانصرفت البلاد إلى صناعة المنسوجات والـورق وخـــام الحـريـر ، وأهملت صناعة الآلات.
وبدلاً من استقدام خبراء صناعة الآلات استقدمت الخادمات والمربيات الأجنبيات ، صاغ الـغـرب لنا كتبنا خاصة في النمو الاقتصادي ، فجعلنا نعتقد أننا لابد وأن نسير في عدة مراحـــل وبشروط معينة حتى نصل إلى مرحلة التقدم فأطال أمامنا أمل تسلم زمام رأس الصناعة ومنبعها وهو (صناعة الآلات).
أجبرنا الغرب على شراء المصانع والآلات منه وبثمن باهظ ، وإذا أصيبت الآلات بعطب أو كسر اضطررنا لاستقدام خبرائه لإصلاحها أو استيراد الآلة منه وإلا تعطلت المصانع كلية.
لم تكن لـبــلاد المسلمين سياسة اقتصادية محددة في أن تكون هذه البلاد (صناعية) بمعنى (أن تـصـنـع الآلات)، ولـهـــذا لم تخلص بلادنا حتى الآن ولم تستغنِ عن الغرب لكنها أصبحت بدلا من ذلك أكثر ارتـبـاطـــاً به وبمنتجاته وآلاته والأهم من ذلك كله بطريقة الحياة الغربية.
يقول (باتاي):
مـــا أن وجـــــد الـغـربـيـون لأنفـسـهـم قدماً في قلب الشرق الأوسط حتى بدأوا في إظهار (تكنولوجيتهم) ونشر مظاهر معينة منهـــا عمداً وعرضاً بين السكان المحليين. إن المظاهر التكنولوجية للثقافة هو إيسر ما يمكن أن يستعار، وهـــــذا صحـيـح فقط عند النظر إلى (استخدام) المنتج التكنولوجي وليس (إنتاجه). إنه يصعب عليك أن تصنع مضخة مياه تعمل بمحرك لكنك تستطيع في دقائق قليلة أن تتعلم كيف تستخدمها، وأن تتعرف على مزاياها التي تفوق استخدامك للأسلوب القديم لرفع المياه عن طريق (الشادوف).
إن قبول سكان الشرق الأوسط للتكنولوجيا الغربية بالإضافة إلى إمكانيات نقلها ووظيفتها الكبرى كمؤشر هام للتقدم ، قد تيسر بواسطة حقيقة مؤداها أنها لا تشغل وضعاً مهماً في ثقافتهم الخاصة.. وبمعنى آخر إن شعوب الشرق

الأوسط مثل أصحاب أي ثقافات أخرى لم ترَ أن مـجـــرد التحول إلى استخدام المعدات الغربية يعنى أن قيمهم الأساسية سوف تتأثر، بل رأت أنه مجرد تغير ذو أهمية قليلة ، وأخيراً أدركت بعد أن فات الأوان أن قبول أي عنصر ثـقـافـي غربي منفرد يؤدي إلى قبول عناصر أخرى أكثر وأحدث فتكون النتيجة إحداث اضطراب خطير في النسيج الحيوي المكون لثقافتهم التقليدية. إن مقارنة نمو التصنيع الغـربـي بتصنيع الشرق الأوسط يبين لنا أن تصنيع الأخير كان محدوداً وفجائياً ، بالإضافة إلـى أنــه مفروض من الخارج ، ولم ينمو عضوياً في بيئته المحلية ، ولهذا كان من المحتمل أن يـصـاحـــب بتوترات قاتلة يترتب عليها انهيار الأشكال التقليدية من التفاعل الاجتماعي الذي تمـيـزه الـعـلاقات الشخصية والأسرية وانتشار المكانات الموجهة قرابياً ، وتحوله إلى الأشكال الغربية من التفاعل الاجتماعي الذي يقوم على العلاقات غير الشخصية«.

هذه خمسة عناصر من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين لتغريبهم وتدمير التوازن القائم في ثقافتهم ، وتندرج جهـــود الغرب هذه تحت قوله عز وجل ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفَاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق))(1) ، وتشير الوقائع السابقة إلـى أن الغـرب قد نجح إلى حد بعيد في جهوده تلك رغم التحذير الذي وجهه الله عز وجل للمسلمـيــن من اتباع سبيل الكافرين كما جاء في قوله تعالى: ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم))(2)، وقوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بـعــض ومن يتولهم منكم فإنه منهم))(3) وقـولـه تعالى: ((لا تجـد قوما يؤمـنون بالله واليـوم الآخـــــر يـوادون من حـــاد الله ورسوله))(4)... إلى غير ذلك من الآيات.

لكن نجاح الغرب في تغريب المسلمين لم يكن راجعاً إى كفاءة تنظيره المدروس الذي أسماه (تـشـويـش الأحكام القيمية) ، فليس هذا التنظير كما يخيل للبعض بجهد إبداعي خلاق يضيف هيبة أخرى إلى هيبة الغرب الحالية في عيون المسلمين. إن هذا الجهد يتضاءل أمام قاعدة ابن تيمية رحمه الله التي يقول فيها: »إن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين الـمـتـشـابهين يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية.. فإن إفضاء هذا النوع من الموالاة أكثر وأشد والمحبة والموالاة لهم أي اليهود والنصارى تنافي الإيمان««.

ويرجع نجاح الغرب في تغريب المسلمين إلى سببين أساسين:

الأول: أن هذا هو قضاء الله عز وجل النافذ فيما أخبر به رسوله -صلى الله عليه وسلم- مما سبق في علمه ، فـقـد قال -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا مـجــر الضــب لدخـلـتـمـوه ، قال يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال فمن؟)(5).

الثاني: ضعف إيمان المسلمين: الله سـبـحـانــه وتعالـى ضـمـن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علماً وعملاً ، يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: »فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم فهم جعلوا عليهــم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى ، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مَكْفيٌ مدفوع عـنــه بالـذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباتـه ظاهراً وباطناً.. وقـد قال الله تعالى للمؤمنين ((ولا تـهـنـوا ولا تحـزنوا وأنتـم الأعـلون إن كنتـم مؤمـنين))(6) ، وقال تعالى: ((فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم)) (7).

فـهـذا الضـمــان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذا كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره.

الهوامش :

*انظر تفصيلا: RAPHAEL PATAI, THE DYNAMICS OF WESTERNIXATION THE MIDDLEEAST JOURNAL, V. 9 NO. 1, WINTER 1955 , PP. 1-16.

(1)سورة البقرة ، آية 109.
(2)سورة النساء ، آية 115.
(3)سورة المائدة ، آية 51.
(4)سورة المجادلة ، آية 22.
(5)أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، وابن ماجة ، كتاب الفتن.
(6)سورة آل عمران ، آية 139.
(7)سورة محمد ، آية 35.

الملف الأدبي

نصـوص شـعرية

»لا«..

د. محمد ظافر الشـهري

من المنتصرْ؟!
سؤال من النار
آذت به عبدَها.. في سَقَرْ

فَرَدّ الشررْ:
عُمرْ.. أيها النارُ..
فازَ.. انتصرْ
ودين المجوس انتحرْ
هُمُ قد »بروا« ريشةَ الغدر
في صدر إسلامنا
لكي يرسموا صورةً قاتمةْ
فكانت لنا الخاتمةْ
لأن القدرْ..
إذا غَيّبَ الشمسَ
أبدى القمرْ!
من المنتصر؟!
سؤالٌ عضالْ!
إجابته لم تكن عند أهل الشمالْ
ولا نزوة من »جمالْ«
إجابته..
دوحةٌ عَبّقَتْ في »الظلالْ«
فغنى شذا عطرها
موكبَ الشمس بعد »الزوال«:
إذا طلب »الرملُ« منا السجودْ
وبلّغنا »الحبلُ« دارَ الخلودْ
فإنا نفضلُ دربَ الحبالْ
من المنتصرْ؟!
ورود غَذَت نحلنا.. أم يدٌ آثمة؟!
لسانٌ تلا الذكرَ..
أم ألسنٌ ظالمة؟!
أكُفٌ بها الجمرُ..
أم راحة الغادة الناعمة؟!
أنا مؤمنٌ
قال للكفر: »لا...«
وأبصرَ في معصم النصر
»أنشوطةَ« الابتلاءْ
فيا نفسُ لا تعذليني
ذريني..
لأنفض عن ساعديّ الكسلْ
وأزرع في مهجتي

بذرة من أمل
وأجتث بـ »الحب« زقومةً!
حيث كانتْ ولـمّـا تزلْ
ترد المسارْ
إلى جمرة
في »تجاعيد« نارْ
وتأبى على »العود« أن يشتعلْ!
ذريني..
أرفرفُ بالروح فوق الحياة
»أوزع« طوقَ النجاة
أصوغ من الفجر أنشودةً خالدة
أعيش حدائي..
إلى »سورة المائدة«
وكل السورْ
وما دام للجنة الارتحالْ
فنعم »السفر«

قصـة قصـيرة

درس الـشـيـخ

د. مـحـمـد الحـضـيـف

يداوم على حضور درس الشيخ عبد الـهـادي في مسجد (الحكمة) وحينما يعود إلى البيت، بعد الدرس، يسأله أهله عن الدرس، فيرد بشيء من الانفعال: هل الدرس طبـق من الأكل أو قطعة ملابس ، حتى أعطيكم رأيي فـيـه؟!
إنه يرى كـل الحضور يهزون رؤوسهم أثناء الدرس ، وبعد خروجهم من المسجد يتحدثون في مواضيع لا عـلاقـة لها بالدرس مطلقا ، يذكر مرة أنه أراد مناقشة بعض الحضور فيما تحدث عنه الشيخ ، فوجد نفوراً ، ثم مال عليه أحدهم وهمس في أذنه: من (الحكمة) أن لا تناقش ما يقوله الشيخ ، إن الشيخ عبد الهادي يكره أن يؤوّل كلامه ، فهو حينما يقول إن التلفزيون حرام ، لا يريد أن تذهب بأحد الظنون فيعتقد أنه يتهم مدير التلفزيون ، أو السياسة التي تقــوم عليها برامج التلفزيون ، أو حتى برامج التلفزيون نفسها ، إن الشيخ عبد الهادي يؤثر (الحكمة) في قوله وعمله ، ولذا فهو يكره (المواجهة) ، ويكره كذلك أن يواجه أحداً بخطئه.
تلاميذ الشيخ عبد الهادي كلهم على هذه الشاكلة ، مرة حضر لأحدهم خاطرة ألقاها بعد الصلاة في مسجد فـي أحــد الأحياء الفقيرة ، كان موضوع خاطرته »أولئك الذين يأتون إلى المسجد بثياب ممزقة وغير نظيفة« ، واشتد في

تأنيبه لهم ، مردداً قوله تعالى: ((يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)). بعد الخاطرة رأى أن يناقشه فيما تحدث عنه ، فقال له: كيف تطالب هؤلاء الفقراء الـمـعـدمـيـن بثياب نظـيـفـة؟ ألم يكن من الأولى أن تحدثهم عن العدالة الاجتماعية في الإسلام حتى تعزيهم على الحال التي هم فيها؟ فرد عليه مستنكراً: كأني أشم في كلامك طروحات الاشتراكيين، أو بعض أفكار فلان وفلان، وبالمناسبة فالشيخ عبد الهادي لا يرى أن من (الحكمة) الترويج لمثل هذه الأفكار.

في إحدى المرات رأى وجهاً غير مألوف يحضر لأول مرة درس الشيخ لقد بات يعرف كل الذين يحضرون الدرس ، بعد أن أنهى الشيخ حديثه وهم الجميع بالانـصـراف ، تكـلـم الشخص الغريـب فجـأة على غير عـادة الحضور فقال: يا شيخ ، أنت تكلمت فقلت من (الحكمة) أن لا تفعل كذا ومن (الحكمة) أن تفعل كذا ، ثم ذكرت حديث الأعرابي الذي دخل وبال في المسجد قبل سنتين ، وها أنذا أحضر درسك الآن ، ومازلت لم تبرح حديث بول الأعرابي، يا شـيــخ، لقد حضرت درس الشيخ عبد الرحمن في مسجد (الحزم) قبل أسبوعين فذكر حديث »سـيـد الـشـهـداء حمــزة«، وحضرت درسه الأسبوع الماضي، وكان موضوعه »الأمة في ظل النظام العالمي الجديد« ، وموضوع درسه اليوم »شيخ الإسلام ابن تيمية مُصلحاً«.

دارت عيون الحاضرين ، واشرأبت أعناقهم إلـى هـــذا الواقف يجادل الشيخ ، بعد هول المفاجأة التي عقدت ألسنتهم ، قال له أحدهم: ليس من (الحكمة) أن تخاطب الشيخ بهذه الطريقة ، فأجاب الشاب: وهل من (الحكمة) أن يخدركم بهذا الكلام منذ أكثر من خمس سنوات؟ قالها ، ثم استدار منصرفاً.

حدثت حالة من الهرج ، وتعالت الأصوات ، منها ما يستنكر التصرف ومنها ما يتساءل ، أما هو فقد انسحب بهدوء وخرج من المسجد ولحق بالشاب واستوقفه ، ثم سأله قائلاً: أنا أعجب من أمرك ، كيف قدرت أن تجادل الشيخ؟ لقد أخبروني أن من (الحكمة) ألا أسأله ، وحينما سألت بعضهم عن رأيه في الدرس ، قال لي إن الدرس ليس أكلاً أو ملابساً حتى يكون لنا رأي فيه ، ثم أريد أن أسألك: من هو الشيخ عبد الرحمن الذي تحدثت عنه؟ وأين مسجده؟ قال الشاب: هل تود أن تحضر درسه؟ فرد بالإيجاب.

في الأسبوع التالي كان في مسجد (الحزم) يستمع للشيخ عبد الرحمن الذي كان يتحدث عن »دور الشباب في الدعوة إلى الله« ، كان الشيخ عبد الرحمن يقول: »إن المجتمع يهدد وجوده الفساد ، لقد غدا حال الناس والفساد يحاصرهم من كل جانب ، كحال قوم حشروا حشراً في نفق مظلم فهم يتخبطون ، يحتاجون دليلاً يقودهم خارج النفق ، والدليل يحتاج شعلة تهديه في هذا الظلام ، إن الشاب الملتزم هو الدليل ، وإن الدعوة هي الشعلة ، لكن الدعوة أمرها خطير ، ومن ضروراتها الامتحان والابتلاء ، ومن لوازمها صنوف من البلاء كثيرة ، منها الموت والسجن والاضطهاد ، مصداقاً لقوله تعالـى:

((أحـســب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)) ، إن الفساد الذي يعصف بالمجتمع أضعاف الظلمة التي تلف النفق ، وإن دون الشعلة لهباً مضطرماً فلا يصل إليها إلا أولو العزيمة الصادقة ، كما أنه لا يصبر على بلاء الدعوة إلا أصحاب الهمم العالية الذين يستلهمون الدرس من معلمهم الأول محمد -صلى الله عليه وسلم- ، »والله يا عم لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه«.
أخذت كلمات الشيخ عبد الرحمن بلُبّـه ، وطفق يحدث نفسه: هذا ما كنت أبحث عنه ، لكن الشيخ حيرني حينما قال خذ الشعلة لتقود الناس ، أي اقبل أن تحمل الدعوة ، ثم يعود فيقول إن دون الشعلة لهباً مضطرماً ، والدعوة محفوفة بالابتلاء.
بعد نهاية الدرس ذهب إلى الشيخ وسلم عليه بحرارة ، ثم طرح عليه تساؤلاته وحيرته ، مال عليه الشيخ وقال: خذ الشعلة.. واحذر اللهب ، ثم أضاف وهو يبتسم: أراك ثانية.

نصـوص شـعرية

جـمرة في الدمـاغ

عبدالوهاب الزمـيلي

في حريق الفكرة (المخدّرة)
غشي العينَ دخانٌ
فبدتْ ثم اختفتْ!
والدماء اتقدتْ
ضاقت الجدرانْ بالجمر المذابْ
يتلوّى في مساريب اللهبْ
وتنادتْ تطرق الرأسَ..
حروفٌ من حرابْ
وتلفّفتُ بجلدي
عند رأس القنطرةْ
أرقب الأسرابَ
يخفيها الطلبْ!
وضممتُ باليدينْ..
رأسي المخبأ! ما أقسى الصخبْ!!
وبدتْ بين التلافيف تعومْ
أيّ زوج يا حروفَ الفتح تدنو!
بورك العرسُ فهاكْ:
وانتشلت الغادةَ الحسناءَ..

من بين الدماءْ
ثم ألفيتُ يدي تغسلُها فوق الجبينْ
وإذ النار سلامٌ
ولهيبُ الحرفِ
ماءْ!!

من الأدب السياسي

كوميـديا السلام الحامض
ما وراء "الكوابيس"

زيـاد الدريـس

1- تأبيـن:

وكالات الأنباء / وكالات السفر والسياحة:

تم ظهر يوم (13 سبتمبر 1993 م) فـي الـبـيـت الأبـيـض »إنهاء« القضية الفلسطينية، حيث أجريت مراسم التوقيع على »حلها وإنهائها« وسط أجــواء »مقدسة«! ساهم رابين في تأجيجها من خلال تلاوة آيات توراتية من سورة »الانتصار«، تلاه عرفات بتلاوة آيات عربية من سورة »الهزيمة«!

2- نسوة في السياسة:

الذين خطـبـوا أو صـرحوا أو كتبوا عن اتفاق السلام بـنـشــوة واحتفالية كانوا لا يمرون في حديثهم على معارضي الاتفاق إلا ويوسعوهم تسفيهاً وجـلــداً لموقفهم من الاتفاق أياً كانت المعارضة فلسطينية أو عربية وكأنهم يصادورن المعارض وبالذات الفلسطيني في التعبير عن رأيه في وطنه! بل ويتهمونه بالنفعية أو الطوباوية.

ثم ما يلبث هؤلاء المحتفلون في نهاية حديثهم القمعي حتى يكرروا تلك المقولة الجديدة في قاموس الصراع العربي/الإسرائيلي: فلسطين شأن فلسطيني، والفـلـسـطـيـنـيـون وحدهم هم الذين يقررون مصيرهم ومصير وطنهم!

(ما أشبه هؤلاء المثقفين بتلك المرأة التي تلوك عورات جيرانها واحداً تلو الآخر، ثم تختم مائدتها بقولها: ما لناش دعوة!!).

*إذا كان هذا موقفكم، فلماذا تؤيدون الاتفاق أو تعارضونه؟

*إذا كانت هذه قناعتكم، فلماذا تقفون غصة في حلوق المعارضين دون المؤيدين؟

*إذا كانت هذه فلسفتكم، فلماذا تتكلمون؟!

*أما أنا فمازلت أؤمن بتلك المقولة التي علمتمونا إياها من قبل أيها المتكلمون، إن القضية الفلسطينية هي قضية العرب والمسلمين جميعاً.

*هــل تذكــرون هذه العبارة/ العهد، أنا لم أكفر بها حتى الآن، ولهذا فمن حقي ومعي المؤمنون الآخرون بها أن نتكلم عن فلسطين.. أما أنتم فلا.

3 -قال قائل منهم:

قبل طرح أي مـشـروع أو قــرار سياسي عربي، ثق ثقة تامة أن الموقف منه حتى قبل الاطلاع عليه وتداوله سيكون على النحو التالي:

ـ سيقول المثقفون القوميون: نـعــم لهـذا الـمـشـروع، من منطلق السعي نحو تسوية الواقع العربي، ورفض »المزايدات«!

ـ سيقول المثقفون الإسلاميون: لا لهذا المشروع، مـن مـنطـلـق السعي نحو تأمين المستقبل العربي ورفض »المناقصات«!

ـ سيقول المثقفون الفلسطينيون: نعم إذا قالت حكوماتهم: نعم، ولا إذا قالت حكوماتهم: لا، من منطلق: وهل أنا إلا من غزية... ولقبض جميع »المزادات« و »المناقصات«!!

إذاً: القوميون ينظرون إلى »اليوم« لأنهم يبحثون عن الاستقرار الإسلاميون ينظرون إلى »الغد«، لأنهم يبحثون عن النصر. السلطانيون ينظرون إلى »الأمس« لأنهم يبحثون عن مواقف بطولية/ خرافية كي يدرجوها في مشروع »مذكرات سيادة السلطان«!

4 -وطـن على الريـق:

آنذاك، حين كانت الشعوب العربية تقاتل من أجل تحرير أراضيها من سنة 1948 حتى 1973 م، مروراً بكل النكبات والنكسات والنزوات، كان المقاتل العربي في ساحة المعركة يجرح أنامله ثم يكتب بالدم اسم وطنه على علم بلاده الذي سيغرسه في ذلك الشبر المحرر!

وهكذا أراد عرفات أن يفعل في ذلك الشبر الفلسطيني الذي حرره في واشنطن، لكن المقام كان مقام سلام لا ينبغي لرائحة الدماء أن تفوح فيه، فما كان من خيار آخر لممارسة ذلك الطقس الجهادي القديم في هذه الأجواء الحمائمية سوى أن يبلل عرفات أنامله من »ريقه الناشف«، ويكتب اسم بلاده على العلم الفلسطيني. هكذا فعل عرفات، وهكذا ستدوم تلك الفلسطين الجديدة مادام هذا الريق!

5 -لحية المناضل ومقص الراعي:

أيام كان عرفات مناضلاً ورقياً وقد تحول الآن إلى رئيس ورقي لم يتمالك أحد الصحفيين أن يكتم الرغبة لديه في أن يسأل عرفات: متى ستتحول طبوغرافية الوجــــه العرفاتي من المرحلة البرزخية بين الحليق والملتحي؟!.. ومتى سيسلخ عرفات جلده العسكري، ويلبس بدلة آدمية تنسجم مع نزهـاتـه وعناقاتـه الدولية؟!

لم يتوان عرفات في الإجابة، فقد كان ينتظر السؤال منذ قذف آخر موسي حلاقة، وآخر قميص »تي شيرت«. قال عرفات: ستزول كل هذه الأعراض

»الفيدل كاسترووية« حينما تتحرر فلسطين، ويندحر الاحتلال الإسرائيلي عن كل »شبر من أراضينا«.
ومضت الأيام شعرةً شعرةً حتى فتح الناس أعينهم على مشهد (غزة - أريحا)أولاً، وإذا مساحة المحرر من فلسطين لا تعدل سوى 2% من مساحة الأشبار المحتلــة. فهل سيحلق عرفات 2% فقط من لحيته؟!
وهل سيخلع 2% فقط من بدلته العسكرية، وليكن الـجــورب الأيمـــن أو ليكن الأيسر، أو كلاهما معاً، فلا اليمين الفلسطيني »المتطرف« ولا اليسار الفلسطيني »المتطرف« يؤيدان الاتفاق، فما أسعد عرفات بخلعهما معاً!
6- "00000":
مسكينة فلسطين، لقد عاشت وعايشت حقبة طويلة من »المزايدة«، يوم أن لم يكن هناك زبون ولا بيع، وربما هي الآن وقد جاء الزبون ليفاوض فإنها تعرض عبر »مناقصة« فمن يشتري بأقل سعر؟!

7- من أشعل الفيروس؟

مرت أزمة الخليج فَطبَعَتْ في الصوت العربي بعامة والخليجي بخاصة خطاباً قطرياً طامساً لذلك الخطاب القومي الذي كان يطفح في شوارع المدن العربية حتى قبل الثاني من أغسطس 1990م، وكان مدهشاً حقاً ذلك الانقلاب السريع في اللغة والعلاقة بين العرب، وكان التساؤل الذي يهتك صمت المجالس العربية هو: هل ستدوم هذه الوعكة القطرية طويلاً؟ أم ستكون كغيرها من الوعكات العربية المتتالية التي ما تلبث أن تنجلي لتفسح المكان لوعكة جديدة!
مهما كانت التخمينات للوعكة الشفائية الـقـادمــــة، فلم يكن أحد يتصور أنها ستكون إسرائيل.
لقد بدأ اللسان العربي يتهجى من جديد اللغة الإقلـيـمـيـة من خلال فكرة السوق الشرق أوسطية، بمشاركة تركيا وإيران وإسرائيل »فيروس الوعكة الجديدة«.
وفي خضم هذه الأعراض كان يخترق الذاكرة العربية في غيبوبتها المحببة سؤال نزق: هذه الدول العربية التي اتكأت على شـجـرة العزلة كأنها لم تأمن بعضها، هل ستأمن إسرائيل على نفسها؟!

8- يا »سلام« سلم:

»رفع المقاطعة الـعـربية«.. »السوق الشرق أوسطية«.. »إعادة توزيع الموارد والثروات في المنطقة«، السباق الأمريكي/ الإسرائيلي المحموم نحو تحقيق وإنجاز هذه الإجراءات السلمية بأسرع ما يمكن، يجعلنا نـتـسـاءل: هــل كانت عملية السلام هذه منعطفاً أرادته إسرائيل لتغيير الحرب معنا من حرب عسكرية »باردة« إلى حرب اقتصادية »ساخنة«؟

9- الـنـكـتـة:

إذا كانت الأمة العربية قد مرت في صراعها مع إسرائيل ضمن ما مرت عليه من قاموس الإخفاق بالنكبة والنكسة في منعطفات صراعها المزمن فإنها الآن تمر وضمن القاموس إياه بمنعطف جديد يمكن أن يسمى: النكثة!
ففي هذا المنعطف تم نكث كل الوعود والعهود التي عقدت عربياً وعالمياً في نخب فلسطين:
*استعادة كل الأراضي الفلسطينية »السليبة«.
*طرد دولة إسرائيل »الدخلية« من خريطة العالم العربي.
*المقاطعة العربية التامة مع إسرائيل سياسياً واقتصادياً حتى ينجلي الاحتلال عن كل شبر فلسطيني.
*إعادة الشعب الفلسطيني اللاجئ والنازح والمهاجر إلى وطنه.
*تنفيذ القرارات الدولية 242، 338، 425، وجميع قرارات هيئة الأمم التي توشك الآن بجهود أمريكية وإلحاح إسرائيلي وهوان عربي أن تُرمى جميعها في زبالة النظام العالمي القديم!

10- كيمياء السلام:

خرج مشروع (غزة أريحا أولاً) من مرحلة البروتوكولات إلى مرحلة المنازعات ومطاردة التفاصيل بين متاهات التعميم الذي ساد بنود المشروع في جانب الحقوق الفلسطينية، ويبدو من متابعة أولية لهذه المطاردات أن تفاعلات السلام ستعطي المعادلة التالية:
مشروع (غزة - أريحا أولاً) + (لا للقدس) ثانياً + غليان/الفيضان
»غاز« أولاً + ريحة »ثانياً« + مشروع (لا للقدس) + (H_2O)!

11- قراءات في الفنجان اليهودي:

(إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مُزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن)!!
السلطان عبد الحميد الثاني
(وسرعان ما أدركت أن أسلوب اليهود في الجدل يقوم على قواعد خاصة بهم، وهو اعتمادهم في أول الجدل على بلاهة خصمهم، فإذا لم يتمكنوا منه تظاهروا هم بالغباء فيستحيل على خصمهم أن يأخذ منهم أجوبة واضحة)!
أدولف هتلر
(تغلغل اليهود في ديارنا.. ونحن راجعون..
صاروا على مترين من أبوابنا.. ونحن راجعون..
ناموا على فراشنا.. ونحن راجعون..
وكل ما نملك أن نقوله: »إنا إلى الله لراجعون«!)
نزار قباني
(أخي إن ضج بعد الحربْ »يهودي« بأعمالهْ

وقـدّس ذكــر مــن مـــاتـوا وعــظـم بطـش أبطالــهْ
فــلا تـهــزج لـمـن ســاروا ولا تـشـمـت بمن دانــا
بـل اركـع خـاشــعاً مـثـلي لـنـبـكي حــظ مـوتـانـا)

ميخائيل نعيمة

12- الكاوبوي »كلينتون«:

الذين تابعوا تفاصيل الاتفاق وإعلان المبادئ، وحذافير لـقـاء التوقيع بزعامة كلينتون، لم يمسكوا بأيديهم سوى حقيقة واحدة مفادها: لقد كان كلينتون »راعياً« بحق!

* كتبت هذه »الكوابيس« في ديسمبر 1993م، وقــد تأخــر نشرها لظروف خاصة بالكاتب، ولحسن الحظ أن مشكلات السياسة العـربية تمتد وتتمطط بحيث لا تحترق المقالات التي تتحدث عنها ولها مهما تأخر نشرها!

مراجعات أدبية

قراءة نقدية في البيان الأدبي (العـدد 76)

أ. د. ناصر بن سعد الرشيد

ينقسم الملف الأدبي إلى قسمين: القسم الأول النصوص الإبداعية من شعر أو قصة أو مقالة، والقسم الثاني دراسات أدبية أو قراءات نقدية، وسأبدأ بالقسم الثاني من الملف المنشور في العدد (76)، فقد كتب الدكتور مصطفى بكري السيد تحت عنوان »مراجعات أدبية: رؤية في القراءة النقدية«، وبدأها بتعريفه للقراءة النقدية بأنها: »نظرية القواعد التي تحكم تفسير نص من النصوص الأدبية، يتأكد فـيهـا دور القارئ بوصفه أحد منتجي النص عبر علاقة تفاعلية تصل القارئ بالمقروء، لتثمر إنـتـاج مـعـرفـة جديدة تتيح للقارئ توظيفها في إغناء ذاته أو في إعادة بنائها«.

ولا شك أن هذا التعريف على جماله وصدقه لا يمكن له أن يستوعب كل تعريفات القراءة النقدية، إذ من المعلوم عند المناطقة أن التعريف يـجــب أن يكـون جامـعــاً مانعاً، بيد أن تعريف الدكتور »مصطفى« على كثرة ما استوعب لم يمنع أن يدخل في هذا التعريف مفردات جديدة ورؤى أخرى، فالدكتور »مصطفى« انطلق من قانون واحد وهو »العلاقــة التفاعلية« كما أسمـاهــا، أو »التواصل« بين المبدع والمتـلـقي، ومحاولة إعادة بناء النص، بمعنى أن الناقــد مبدع، وهـــذه هي إحدى نظريات النـقـد الحديثة، وهي قراءة واحدة من قراءات النص، فالنص لاسيما الجيد عالم فسيح يمكن أن ينظـــــر إليه من زوايا متعددة، فحيناً يقرأ قراءة تفسيرية وهي التي أشار إليها الدكتور، وتارة يقـــــرأ قراءة تأويلية، ولعل هذه القراءة هي القراءة السائدة

اليوم، وهي القراءة الأفسح والأرحـــــب، وتارة أخرى يقرأ قراءة جمالية فنية، بمعنى أن توظف فيها آلات »اللسانية« وقوانين البلاغة، والنص الجيد بعد ذلك كله هو ذلك النص الذي »لا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء«.
ولقد حاول الدكتور »مصطفى« أن يعطي هذا النوع من القراءة مصطلحاً إسلامياً فسماها قراءة »التدبر«، وهو مصطلح في الحقيقة رائع وجامع ومانع فهو رائع إذ هو مصطلح قرآني يجب أن نحتفل بـــه، وأن نحييه في دراساتنا النقدية المعاصرة، علنا نستغني به عن مصطلح أجنبي لغربه، فلا ينسجم تمام الإنسجام مع ما نريد، فالمصطلح الذي لا يحمل ما نريد أن نضع فيه من معاني ورؤى وحمولات مصطلح ضامر ضعيف، لا يقوى على كثرة الرد ويبلى مع التكرار أو يـكــون مـوهـمـاً لخلاف المقصود، وهو جامع لأنه يجمع كل أنواع قراءات التدبر من تفسيرية وتأويلية وفـنـيـة وجـمـــالـية، وهو مانع لأنه يمنع القراءات السريعة المبتسرة التي لا تتغلغل إلى بناء النص ولا تـغــوص فـي أعـمـاقــه، فمثل هذه القراءة إنما تستخرج من النصوص محاراتها وقواقعها، لكنها لا تصل إلى دررها وجواهرها.
لقد ركز الدكتور مصطفى على قراءة »التدبر« تركيزاً انطلق منه إلى حـكـــم خطير وصائب، حيث قال: »ولكن الذي مات بل في الحقيقة ولد ميتاً وجمهوره آخذ في التناقص هو اجترار الكلام والفكر المعلب والرؤى القبلية وإخضاع التعامل مع الإبداع إلى قوالب جامدة منغلقة لتصبح ذات صيغة سلطوية وتسلطية على الفكر الموضوعي، ويكون سقف الفن عندها هو المقنن الجاهز والسلبي المستهلك«.
ويحذر الدكتور مصطفى من بعض أنواع القراءات التي لا تسبر غــــور النص والتي تفتقد شروط قراءة »التدبر« وأنا معه في ذلك وخصوصاً تلك القراءات المعجمـيـة التي تهمل السياق بأنواعه وما يشير إليه النص، أي تهمل إشارات النص ومنطوقاته ومخـبــوءاتـــه، وهذه القراءات قراءة لغوية تصلح للدراسات اللغوية، لكنها لا تصلح للدراسات النصية الجامعة، ففي هذه القراءة تغيب عن القارئ أوليات التعامل مع الشعر والأثر الفني بعامـــــة، فهي تمكنه من الإحاطة بالمسـتوى الإخباري للنص، ولكنها تحجب عنه المسـتوى الإشـــاري وهــو مـــا تزخر به اللغة الشعرية فيما وراء المؤدى المباشر، والذي يكون نظام العلاقات الدلالية والإيقاعية في النص، وهو الذي يجعل النص يفلت من الظرف المحدد، ويمتلك القدرة على البث المتجدد بحيث يخاطب أجيالاً عدة«.
وليس كل نص بقادر على أن يفلت من الظرف المحدد، ويملك القدرة على البث المتجدد مهما كان قارئه، ما لم يكن هذا النص نصاً عظيماً مثل القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض النصوص الشعرية الجيدة الخالدة، وإلا فإن هناك نصوصاً مهما حاولت القراءة شحنها أو مهما كان التعامل معها لا يمكن

لها أن تستجيب لذلك لأنها نصوص ركيكة ضعيفة أو معادة، والقارئ مهما كانت قدرته وملكته النقدية، أو حتى موهبته الإبداعية لا يستطيع بأي حال من الأحوال »نفث الروح في نصوص ولدت ميتة«، كما أنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يُنْشر الموتى، لكن إذا اجتمع النص الجيد والقارئ الجيدكان الإبداع نقداً والنقد إبداعاً، وانفلت النص من ظرفه المحدد، ومن مناسبته الخاصة أو سياقه الضيق إلى عالم واسع رحب يخاطب كل الأجيال ويخاطب كل الأمكنة ويخاطب كل الأزمنة، وكذلك هو القرآن الكريم »والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب«.
إن لم نفطن إلى هذا الشمول في تعاملنا مع النص فإننا والحال هذه »نمارس قتل روح النص في حق النصوص الحديثة والتراثية على السواء، هكذا مانزال ندرس المتنبي، المادح، ومايزال الموضوع أي سيف الدولة وحروبه محور شاعريته، ويغيب عنا مناخ القمم الذي يكشف عنه نظام العلاقات اللغوية في شعره، يغيب عنا جواب المتنبي على عصر تقهقر فيه العنصر العربي المسلم...« ومثل هذا يمكن أن يقال عن مرثية ابن مناذر لعبد الوهاب الثقفي، ومرثية ابن الرومي لابنه محمد، فالقصيدتان وإن قيلتا في مناسبتين خاصتين لكن قراءتهما يجب أن ترتفع بهما عن خصوصية المناسبة (السبب) إلى عمومية اللفظ (الفكر كله والحياة كلها)، إذ يمكن لهاتين المرثيتين أن تقرآ على أنهما تحتلان رؤية فلسفية للموت والحياة وللحزن البشري والمأساة الإنسانية والتساؤل عن ما وراء الموت وهذه النظرة لا يمكن أن تتأتى إلا بمحاولة استنطاق النصوص، واستكشاف دلالاتها وإشاراتها »إن هذه القراءة تسير في اتجاهين متبادلين من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص، فبقدر ما يقدم النص للقارئ يضفي القارئ على النص أبعاداً جديدة قد لا يكون لها وجود في النص«.
وأختتم قراءتي لما كتبه الدكتور مصطفى بكري السيد بإشارته إلى المشكلة كلها، وهي مشكلة تنظيم الحياة ونشاطها، وهي مشكلة الفكر، فالمشكلة النقدية هي جزء من هذه المشكلة، يقول الدكتور: »وأخيراً فإن مشكلة النقد ليست معزولة عن مشكلة الفكر عندنا، بل إن مشكلة النقد هي مشكلة هذا الفكر أو هي وجه من وجوهها«.
وفي العدد نفسه كتب الأستاذ محمود مفلح تحت زاوية »نقد على نقد« موضوعاً اختار له عنوان »نقد ظالم.. ونقد نائم«، وهو عنوان مثير يبعث في سامعه وقارئه أشتاتاً من الأسئلة، وأحسب أن أبسطها وأقربها متناولاً: ما هو النقد الظالم وما هو النقد النائم؟ وهل هذا تصنيف نقدي جديد أم هو مصطلح جديد؟ لاسيما ونحن في عصر التصنيفات الجديدة والمصطلحات المستحدثة..
إن الجواب على هذه التساؤلات وربما غيرها، وما تحدثه من إيحاءات وما تستدعيه من تفسيرات أو تأويلات، سيظهر للقارئ بعد أن يكمل قراءة هذه المقالة النقدية، فما يلبث أن يجد الأستاذ محموداً يعني بالنقد النائم النقد

الذي يتناول النصوص الإسلامية (حسب قوله)، والنقد الظالم هو النقد الذي يدور في »فلك الحداثة والتغريب والأشكال التعبيرية الجديدة التي يكتنفها الغموض ويشكل لحمتها وسداها اللغز والأسطورة والسحر و(يفلسفون) لها ويؤولونها ويحاولون جاهدين أن يقنعوا القارئ بأهميتها وريادتها«، أما أن النقد نائم في رأي الأستاذ محمود فلأن »صوت النقد في صحافتنا الأدبية الإسلامية ومن أقلام كتابنا خافت جداً«.
وأحسب أن القارئ لما كتبه الأستاذ محمود الذي يعالج نوعين من النقد قائمين اليوم، وإن كان أحدهما يظهر على الآخر (نقد إسلامي ونقد مستغرب) عليه قبل أن يسلم للأستاذ محمود أو لا يسلم. أن يعرّف الأدب الإسلامي (أي النصوص الإبداعية) وما مواصفات كونها إسلامية، وما مواصفات كونها غير إسلامية أو مستغربة، وما هو المبدع وما نوع إبداعه، وهل للمبدع رسالة وما الفرق بين الإبداع وبين التعليم، وهل للشكل أثر في كونه إسلامياً أو غير إسلامي، وهل »الأشكال التعبيرية الجديدة« غير إسلامية؟. كل هذه التساؤلات ومعها غيرها مثلها أو تزيد يجب أن يجاب عنها من قبل الأستاذ محمود أو من قبلي أو من قبل رابطة الأدب الإسلامي، وأتمنى أن تترك لرابطة الأدب الإسلامي.
وإذا كان الأدب الإسلامي حسب مفهومي الذي اقتبسته من القطبين (سيد ومحمد) هو باختصار (كل تعبير فني جميل يعبر عن الإنسان وقضيته وعن الوجود والكون والحياة ، وما وراء الحياة، وعالم الغيب والشهادة، تعبيراً لا يخالف ضوابط الإسلام وأصوله)، لو أخذنا بهذا التعريف الأولي للأدب الإسلامي لوسعنا دائرته وأغنينا مجالاته ونفينا عنه الجمود والضيق والقولبة الضيقة، وأخرجناه »من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة«.
وأذكر أنني قلت في تعليق لي ذات ليلة في ندوة من ندوات الأدب الإسلامي المباركة، تعليقاً على الأستاذين الفاضلين الدكتور عبدالقدوس أبو صالح والدكتور عبدالباسط بدر، حول رأيهما في تعريف الأدب الإسلامي: »أود أن ننظر إلى الأدب العربي كله بعد الإسلام على أنه أدب إسلامي، وأن نخرج منه ما خالف الإسلام على أنه أدب شذ عن منهج الأدب الإسلامي في مضمونه أو في تعبيره، كما أنني لا أميل مطلقاً إلى تتبع بعض النصوص الأدبية في تراثنا الإسلامي وإبرازها على أنها نصوص إسلامية، وأن ما سواها ليست كذلك«.
وأعتقد أننا لو أخذنا بهذا الرأي لوجدنا أن جملة نصوصنا الأدبية هي نصوص إسلامية حتى إذا ما عرضناها على التعريف الآنف، وجدناها تندرج تحته بكل تواءم وتناغم، ولو أخذنا مثلاً شعر أبي نواس برمته وجملته لوجدنا أن أكثره شعره يندرج تحت ذلك التعريف للأدب الإسلامي، وإنما خرج من ذلك التعريف إنما هو شاذ يمثل الأقل، ومثله يقال عن أبي تمام وشعره والتجديد في الشعر شكلاً أو مضموناً ليس بالضرورة أن يكون غير إسلامي كما أن عدم التجديد في الشعر شكلاً أو مضموناً ليس بالضرورة أن يكون إسلامياً .

وأحسب أن من الأخطاء التي يقع فيها المنظرون للأدب الإسلامي أن يعتبروا بعض الأشكال الشعرية الجديدة، أو بعض التعبيرات الشعرية الحديثة التي تحاط حيناً بالغموض وحيناً آخر بالإبهام أدباً غير إسلامي، أو أدباً يتعارض مع الإسلام، والنظر هنا والحكم على كونه إسلامياً أو غير إسلامي يجب أن يتوجه إلى المحتوى والمضمون، ولقد كفتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه مؤنة ذلك كله وكأنها تجيب عن هذا التساؤل بقولها: »الشعر كلام (كسائر الكلام) حسنه حسن وقبيحه قبيح«.
ولا أكتم أخي الفاضل الأستاذ محموداً أنني في يوم من الأيام كنت مستوحشاً من بعض النصوص الجديدة ولاأزال أستوحش من بعضها لأنني كنت قد جئت إليها بتصور مسبق على أنها صورة من صور الهدم، أو وعاء من أوعية الغزو الثقافي، أو وسيلة من وسائل التغريب والاستلاب (وهكذا ينظـر في أغلب الأحيان إلى كل جديد وخصوصاً في المجتمعات المحافظة مثل مجتمعنا)، بيد أنني بعد أن وطئت حماها، وخضت حمأتها، وحاولت أن أعقد نوعاً من الألفة بيني وبينها، بدلاً من الوحشة، افترّت لي عن بعض محاسنها وأسفرت لي عن بعض مناقبها، وعرفت أن هذا النوع من التعبير ليس بالضرورة أن يكون متمرداً على القيم الإسلامية، وإنما هي مسألة صراع الأجيال والاتصال الحضاري الرهيب والتثاقف المتسارع (وإن كنا الأضعف في حلبة الصراع الحضاري والتثاقفي).
أقول هذا لأنني قد وجدت في بعض هذا النوع من الشعر بعض المضامين الخيرة وخصوصاً موضوع »الهوية«، والبحث عن الذات وسط هذه الانكسارات وإزاء هذه الانتكاسات والمحن، وأحسب أن محمداً الثبيتي واحداً من هؤلاء الشعراء في قصيدتيه: »فواصل من لحن بدوي قديم« و »صفحة من أوراق بدوي«، وما يقال عن الثبيتي يقال عن بعض من الشعراء غيره، ومنهم الشاعر عبد الله الصيخان في عدد من قصائده التي احتواها ديوانه »هواجس في طقس الوطن« كقصيدته المعنونة »الحجرة«، وقصيدته »فاطمة«، وقصيدته »هواجس في طقس الوطن«، ومنهم الشاعر عبد الله الزيد في »أغنية للوهج« و »وجع المسافة بين دمك وثلاجة الموتى«، في رثاء أخيه محمد، ومنهم الشاعر عبد الله الخشرمي في قصيدته »وصايا النخيل«، ولو أخذنا الشاعر الكبير عبد الرحمن العشماوي على أنه من شعراء الأدب الإسلامي الشباب فسنجد شعره ينضح إسلاماً في شعره العمودي المألوف أو في شعره الجديد »بائعة الريحان« على السواء مما يبرهن على أن الشكل التعبيري الجديد ليس بالضرورة أن يكون موحشاً أو أن يكون وعاء خطيراً يتنافى والأدب الإسلامي.
وبعد: فإن لم ننتبه إلى هذا فإننا سنخنق الأدب الإسلامي في بوتقة ضيقة، ونجعله في حيز ضيق يفقد فيه نموه وانطلاقته، وربما أدى ذلك إما إلى عقمه وإما إلى موته.. وأرجو ألا تكون بعض مواقفنا المتشددة في فهمنا للأدب

الإسلامي، وسجنه في حيز الوعظ والتعليم والتعبير المباشر، هو ما حدا ببعض النقاد أن يتجاوزوا هذه النصوص إلى نصوص أخرى وصفها »محمود مفلح« تارة بأنها »تدور كلها في فلك الحداثة والتغريب والأشكال التعبيرية الجديدة التي يكتنفها الغموض ويشكل لحمتها وسداها اللغز والأسطورة والسحر »ويفلسفون« لها ويؤولونها ويحاولون جاهدين أن يقنعوا القارئ بأهميتها وريادتها، وتارة أخرى يلحى باللائمة على نفر من نقاد الحداثة والتغريب (كما أسماهم) بأنهم يقدمون نصوصهم التي يقرأونها ويتناولونها بالدراسة »إبداعية ومعاصرة ومهمة وجديرة بالقراءة... إلا النصوص الإسلامية!!! أو ما يقترب منها، فإنها في زعمهم فقيرة متخلفة، فجة، تغلب عليها الخطابية والسطحية، وهي تجافي روح الفن، وتتنافى مع الحساسية الجديدة والرؤية المعاصرة«.
كما يسوء الأخ الأستاذ محمود مفلح التعاون الوطيد بين هذا النوع من النقاد تعاوناً يرفع بعضهم من شأن بعض، ويدعو بعضهم لبعض حسب قوله: »وإن المتأمل كذلك فيما يكتب من نقد هنا وهنا لابد وأن يلاحظ أن ثمة اتفاقاً وإجماعاً على توجه نقدي معين، وأن ثمة جسوراً تقام بين هذا الناقد وذاك، فكأن هذا هو الصوت، وذلك هو الصدى في تناغم عجيب واتفاق يبعث على الدهشة«.
أقول للأخ محمود وغير محمود: إن التنافس بين الاتجاهات النقدية المتصارعة لا يحسمها مثل هذا التشكي وذلك التظلم، وإنما يحسمها العمل فلكل منتداه ولكل رابطته، وأعرف أن للأدب الإسلامي رابطة تجمع كثيراً من أدباء العالم الإسـلامي عربه وعجمه ومبدعيه وناقديه، فالحلبة ميسرة للجميع وإن الحصيف المبدع المجدد هو من سيظهر في النهاية على صاحبه، وكما كان الشعراء في عهد بني العباس يميت بعضهم بعضاً وحمل بعضهم ذكر بعض بما يقدم للساحة الأدبية من إبداع جديد ، فإن النقاد والمبدعين في هذا العصر يظهر بعضهم على بعض، ولا أشك لحظة واحدة في أن المبدع الذي يلمس جراحات أمته وواقعها، ويحقق هويتها من خلال رؤية جديدة أو تعبير جذاب، هو الذي سيبقى وغيره سيذهب جفاء، وما الشاعر الإسلامي الدكتور عبد الرحمن العشماوي إلا مثل أسوقه للشاعر المتألق المتجدد ذي الصيت الذائع.
ويجمل بي وقد أطلت الوقفة مع الأستاذ مفلح أن أختم قراءتي لمقالته بتعقيب بسيط على قوله: »واستعرض إذا شئت الصفحات الأدبية الإسلامية في أي مطبوعة تشاء، فإنك قل ما تجد دراسة أدبية جادة عميقة ذات رؤية نقدية واضحة تنسجم مع قيمنا الحضارية وتعطي لهذا العمل أو ذاك حقه ، ولن تجد كذلك توجهاً نقدياً عاماً واضح المعالم، ولن تجد أيضاً وأقولها بمرارة أسماء نقاد جادين دؤوبين مخلصين لهذا الفن أو ذاك رغم أن النتاج الإسلامي معافى ومقروء ولا يخلو من جماليات تستحق أن يتوقف عندها النقد«، فلمَ هذا! أهو أمر يتعلق بالنتاج الإسلامي أم هو أمر يتعلق بالنقاد أنفسهم!!

أما القسم الإبداعي فسأتوقف ملياً عند بعض القصائد وعند قصة واحدة وأما القصيدة التي أود أن أقرأها على عجل فهي قصيدة الدكتور صالح الزهراني بعنوان »رتابة«، وهذه القصيدة سأعدها قصيدة إسلامية على أن التعليم فيها أو المباشرة ليست واضحة، وإنما أعدها إسلامية لأن موضوعها يعالج أمراً من أمور هذه الأمة، وموضوع القصيدة الرتابة في كل شيء والزيف في كل شيء، وأن كل شيء هو ذلك الشيء لم يتغير ولم يتحول، وأن الخطأ هو الخطأ والكذب على الشعوب هو الكذب، وأن الهزيمة نصر وأن الفتح رقص وغناء ومائدة.. موضوع يصلح أن يكون إسلامياً وغير إسلامي، بمعنى أن مثل هذا الموضوع لا يصنف إسلامياً كما أنه لا يصنف غير إسلامي، أقصد من هذا أن أعود إلى بعض ما أسلفت حين قراءتي لما كتبه الأستاذ الفاضل محمود مفلح، وأبرهن على أن الأدب الإسلامي قد يتسع حتى يدخل فيه ما لا يخالفه، لكن ليس بالضرورة أن يكون موضوعه إسلامياً صرفاً أو تعبيراته تعليمية وعظية.

إن الشاعر الزهراني شاعر يملك قدراً هائلاً من الإبداع مارسه في هذه القصيدة الجميلة، وآية توفيقه أنه جعلها أو أنها جاءت على بحر مجزوء قوي الإيقاع (رجز) وقافية متحركة ساكنة، فالتاء المربوطة ساكنة وما قبلها مفتوح حتى يتلاءم البحر مع القافية، لقد عبر الشاعر الزهراني عن ما يدور في حاضر هذه الأمة وما يقدم لها من إعلام وزيف أصبح مستهلكاً ومكشوفاً، أي لم يعد ينطلي على أحد إذ أصبح هذا الزيف ديدناً أي »رتابة«، وحاول الزهراني أن يحدده بتسعين سنة، ولا أدري بالضبط لماذا »تسعون حجـة« والزمن هنا لا يهم تحديده فالقصيدة ليست وثيقة تاريخية تؤرخ لبداية خمود ثورة الوعي، والمهم أن هذه الثورة خامدة وبرهان هذا الخمود:

يبدأ العرض ميتا! فوق أشلاء صامدة
البدايات واحـدة والنهايات واحــدة

ويعود هذا المشهد في كل مرة فيبدأ العرض ميتاً والبداية واحدة والنهاية واحدة، والأنكى من ذلك أن:

بطل العرض واحـد وقصة العرض واحدة
بعد يوم من الضنـا والوجوه المزايـــدة

يأتي العرض لكن من مُخْرج واحد ومن عارض واحد ومن قصة عرض واحدة، فهل يوقظ الجماهير الراقدة بإعلان الفاتح

عن فتواحات جيشـه عن قـواه المجاهـدة
أنها شـقت الـمـدى واستباحت وسائده
وأراقت دم الدجــى وأضاءت فراقــده

والجماهير تدرك هذا الزيف لأنها اعتادت عليه، لكن شاعر الهوى يتهجى قصائده فلا يحرك ساكناً في هذه الجماهير الجامدة ولا يوقظها لأنها:

عرفت كيف ينتهــي

عرفت كيف يبتـدي
أصبح الزيف قاعدة!!
مسكين هذا الفاتح الذي تنتهي فتوحاته بالرقص والغناء والتطبيل والمائدة دون أن يتفاعل معه جمهوره، لأن جمهوره يعرف زيفه وخداعه، وأن هذا الفصل منذ تسعين حجة يعود ويعود وتحفظه الجماهير التي أصبحت جامدة لا يحرك فيها ساكناً، وهنيئاً لهذه الجماهير النائمة التي لا تتحرك، ولعل الصحوة تعقب هذا الرقاد لأن الرقاد هنا والجمود هنا علامة من علامات إدراك الزيف وإدراك الزيف هو أدل دلائل اليقظة.
أما القصيدة الثانية فهي »دمعة على أطلال سربنتسا« للشاعر فيصل محمد الحجي، وهي قصيدة معبرة حمّل فيها المسلمين مسؤولية ما حدث لهذه المدينة من حصار وقصف شديد، إذ لم يحفظوها كما يحفظ الحر الحرة بالدم، وأراد أن يثير فينا النخوة وحمية الإسلام، وحق الأخوة وواجب النصرة، بتعييرنا من طرف خفي بتقاعسنا، ولمح لنا بأننا لم نفعل كما فعل هارون والمعتصم بالروم وتذكيرنا بتاريخنا هنا ليس يقصد منه الشاعر إعلامنا بأن هارون أو المعتصم قد هبا يوماً لنجدة مسلمة أو مسلم استغاث بهما أو احتاج إلى عونهما، فهذا خبر نقرأه في مقرراتنا المدرسية الأولى، لكنه أراد أن يعيرنا بتقاعسنا، وأن يعقد مقارنة بين ضعفنا الراهن ووهننا القائم، وبين قوة وشهامة أسلافنا، فيذكر (هارون الرشيد) مقابل (نقفور) حيث يجعل من الرشيد رمزاً للقائد المسلم وللرئيس المسلم ذي النجدة والشهامة الذي يشعر بأنه مسؤول أمام الله ومحاسب على ذلك إن فرط بعدم حماية مسلم أو مسلمة، حتى ولو كانت في بلد غير إسلامي، ويجعل من من »نقفور« رمزاً للصليبي الغربي المعتدي على حرمات المسلمين وأوطانهم، فإن كان الرشيد حياً أدبه وعلمه كيف تصان حريات المسلمين وأراضيهم، وإن كان الرشيد ميتاً صال »نقفور« وجـال وانتهك الحرمات، وجبا الأموال منا بطرق متعددة، وعجزنا أن نفعل شيئاً رغم كثرة عددنا وعتادنا، ووجدنا أن الملجأ من هذا كله إلى مجلس الأمن نعرض فيه قضيتنا، وجعلنا منهم الخصم والحكم في الوقت نفسه.
والقصيدة في جملتها قصيدة معبرة جياشة تصلح أن تلقى، ولو ألقيت لكانت أشد أثراً على المتلقي من مجرد قراءتها، على أن هذا الأثر قوي على قارئها، وهي قصيرة تحمل رسالة خيرة، ونقول لشاعرنا الحجي:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وليسمح لي الشاعر محمد البراهيم على عدم قراءة قصيدته »ذكرى العبور« رغم استحقاقها للدراسة والقراءة، فهي قصيدة لا تقل عن أخواتها إن لم تفق بعضاً منهن، لكن ضيق الوقت لم يسمح لي بذلك من ناحية وشعوري بأن القصيدة تحتاج إلى وقفة أطول تنصفها، وتقدمها للقارئ تقديماً يليق بها من ناحية أخرى، ولعلي في قادم الأيام أتمكن من قراءتها.

أما قصة عبدالحليم البراك فقد كتب قصة طريفة عنوانها »شيء لم يحدث« اختصر كل أحداثها في هذا العنوان السهل، والقصة واقعية عرضها عرضاً فنياً موفقاً ليس فيها تكلف بعض القاصين، ولم يحاول أن يدخل فيها فضولاً كما يفعل بعضهم، وإنما حبكها حبكة محكمة، وكل حلقة من حلقاتها تستطيع أن تكملها بقولك »وكأن شيئاً لم يحدث«.
إن بطل هذه القصة وإن كان يرقب جدار صمت قد امتدت قامته حتى الأفق يثنيه هذا الجدار من أن يعانقه، فهناك »فتحة علوية تكاد تختفي في ثنايا هذا الجدار الشامخ.. ثمة نور ضئيل منها«، وعلى صعوبة الأمر حيث الجدار يعانق الجدار، وهذه السلسلة الحديدية التي لم تستطع أن تثقل أنفاسه الحرة داخله«، فإن هذا لا يمنع من الفرحة »وكأن شيئاً لم يحدث«.. إن هذه القصة تروي أحــــداث شاب محاصر لكنه لا يستسلم لأنه ينظر إلى كل شيء دون ما يأبه لعواقبه »وكأن شيئاً لم يحدث«.
أن القصة لا تحتاج إلى تأويل أو تخـــرص، وإن كان القاص حاول أن يشغلنا عن تقريرية القصة ببعض الإبهام مثل قوله: »ألقـهــا« دون معرفة عائد الضمير، وهذا مما يشوق القارئ لمحاولة معرفة على ماذا يعود الضمير، ومـثـــل »ثمة جموع وقحة« ما هي هذه الجموع؟ إن الإجابة على هذه التساؤلات التي طرحها الـقـاص وهي التي جعلت من قصته عملاً أدبياً جيداً تظهر في مكان آخر حين »يتمخض عن انفـجـار مدو يحصد أربعة من ذوي الأكتـاف المذهبة فأكثر من عشرة قد زينت أذرعهم الوقحة بشرائط خضراء«، هؤلاء الوقحون يسميهم المحلفون والمحاكمون بأنهم »أربع حمامات«، ولا يخفى ما لهذه المفارقة من أثر فني رائع.
كل هذا يحدث لكنه بالنسبة له »ـكأن شيئاً لم يحدث«، إن لدى القاص ملكة فنية استطاع من خلالها أن يوظف عبارة »وكـأن شيئاً لم يحدث« في أربعة سياقات من القصة، كل عبارة توحي بمعنى جديد وبمعنى مغـاير، إن هذه الكلمة السحرية »وكأن شيئاً لم يحدث« هي كل شيء في هذه القصة، هي عـنـوانها وهي بدايتها وهي نهايتها، وهي عقدتها، وأحسب أن هذه الكلمة السحرية »وكـأن شيئاً لم يحدث« تكفي الأخ القاص عبدالحليم البراك أن تضعه في عداد القاصين ذوي الطرح الملتزم والقدرة الفنية.
وأخيراً فلـقـد حـرصــت على أن أتناول قصة الدكتور الحضيف »حدث في الـســوق« إلا أن الدكتور مصطفى بكري قد قرأها قراءة لا أرى عندي عليها من مزيد.

المسـلمون والعالم

على أطلال الـيـمـن:

المجـد لكرسي الحـكم!

د. عبد الله عمر سـلطان

مع تصاعد موجـة عدم الاستقرار والـحــــروب المصغرة على مستوى العالم بدا واضحاً أن الشعارات الفضفاضة كالنظام العالمي الجــديـد، وزوال خـطـــر الحرب النووية، وانتصار الديموقراطية النهائي (بصورتها الغربية)، ونكتة نهاية التاريـخ وبـزوغ فـجـــر الـســـلام الـمـزعـــوم... لا يمـكــن أن تغطي سوأة الأحداث الملتهبة والإفلاس الذي تشهده الساحة السياسية الدولية، أو أن تحـجـب كـســاح الأمم الـمتحدة التي لا تحمل من اسمها سوى الرسم، ومن مضمونها القبيح إلا هامة بطرس غالي وسمعته المثيرة للغثيان.

وفي هذا الخضم الفوضوي والدوائر المتلاقية، أخــذت مــراكـــز الدراسات الغربية تبحث باهتمام عن ظاهرة مثيرة للجدل: وهي مستقبل اليسار في العالم لاسيما النصراني منه، ففي المجر أزاح الناخبون الحكومة الليبرالية الديموقراطية التي خلـفـت نظام الستار الحديدي الشيوعي ؛ ليقفز الشيوعيون مرة أخرى إلى السلطة، بينما يتوقع أن يشـهــد العالم الحالي عــــودة قوية لليسار في أوربا لاسيما ألمانيا، حيث يسعى الديموقراطيون الاشتراكـيـون إلـى الوصول للحكم، في الوقت الذي يظهر أن حزب العمال البريطاني في طريقه إلى إسقاط حكم المحافظين الذي لايزال يحكم لعقد ونيف ؛ ليزيل أسطورة التفوق اليميني في المجتمعات »الأنجلو سكسونية« كما حدث العام الماضي في كندا ومن قبلها الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد أظـهـرت نـتـائـج الانتخـابـات الأوربية هذا التوجه، حيث سجلت الأحزاب ذات التوجهات اليسارية تفوقاً واضـحـــــاً لاسيما في البلدان التي تحكمها الآن أحزاب يمينية ومحافظة، لكن هذا الصعود الظاهر لا يمكن أن يخفي في طياته بعض الملاحظات الجوهرية وأهمها أن اليسار اليوم هو يسار يختلف في ملامحه وتوجهاته عن يسار الستينيات، حيث خفت حدة الطرح السياسي وأخذ الـيـسـار الحالـي يتجه كثيراً نحو الوسط ، لاسيما في طروحاته الاقتصادية هذه الطروحات في حد ذاتها تجعله اليوم يؤمن أكثر بقداسة السوق وآلياته بعد أن كان يلعنها ويمقتها ويصنفها على أنهــا من آثار الإقطاع والرجعية، وهو بإضافته قضية البيئة والمخاطر المحدقة بها شَكّلَ نقـــاط جذب وكسب بعد أن أصبحت مشكلة البيئة ملحة لاسيما في أوروبا المكتظة سكانياً والـمعادية بحكم وثنيتها للطبيعة في خضم معركتها معها لقهرها وإذلالها، وإضافة إلى هذه الـمـــلاحظة فإن المرء لا يمكن أن يتجاهل تراجع اليسار الحاكم في دول كفرنسا وأسبانيا على سبيل المثال، حيث شكلت النتائج الأخيرة مصاعب جمة ليسار لايزال يتربع على سدة الحكم.

كل هذه العوامل تجعل أنصار الدورة التاريخية لتفسير الأحداث وتشريح الجسم السياسي ينتشون، وهم يوظفون هذه السلسلة الحاشدة من الأحداث

للـتـدليل على نجاح نظريتهم القائلة: بأن الغرب منذ القرن الماضي يشهد دورة كل ثلاثين سنة، ينقلب فيها الناخبون من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار بعد أن يفرغ كل جيل من هذا الطرف أو ذاك برنامجه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن هذا التوازن حفظ لأوربا الغربية وأمريكا التوازن المطلوب لتكريس الهيمنة، وتجديد الدم المطلوب لخوض معركة الهيمنة الدولية.
إن اليسار هو نتاج وإفراز متراكم للتجربة الغربية، لذا فإن دوره في الحياة الغربية مفهوم، كلما شعرت المجتمعات هناك بأن »اليمين« قد استنفذ طاقاته وأفكاره، واليسار هناك لا يكف عن تطوير شعاراته ونظرياته وممارساته في سبيل »المصلحة القومية«، وهو في سبيل هذا لا يتجاهل مثلاً مكونات الحضارة التي ينتمي إليها، أو يتعامى عن صعود الشعور الديني الملتهـب في العالم والغـرب وإذا استثنينا ديناصورات الماركسية المتحجرة، فإن بإمكاننا القول أن اليسار الأوربي من خلال الأمثلة الحاكمة في أوربا وأمـريكــا لا يخفي عداءه المتأصل للإسلام وأهله، وإن أضاف إلى نظريته العدائية بعض الأطر الفـلسفية المطلوبة.
لقد أردت باستعراضي هذا الدخول إلى موضوع مهم هو »دور اليسار العربي في واقع الحياة العربية الحالية وتراكم السحب الداكنة التي تلف حاضرنا« فقد وصلت الأمـــــة إلى شفا الجرف الماثل بعد سلسلة طويلة مـــن عملية الاستلاب السياسي والعقائدي والاقتصادي، وجاءت مأساة اليمن لتبرهن لنا جميـعـاً على أن التشرذم لا حدود له، والمؤامرة لا نهاية لها، والتوجس القائم من المخاطر القادمة له ألف سبب يبرره، لقد ضربت اليمن مثالاً ؛ لأنه نموذج يستحق الفحص ومأساة تفرض نفسها مع استمرار النزف والدم المراق والحلم المتهشم وتساءلت عن دور التيارات العلمانية واليسارية بخاصة في صنع هذه المأساة حيث يبحث الغرب عن دور لليسار يلعبه، بينما كان اليسار الشيوعي في عالمنا العربي ينقلب ليتحول إلى »إنزيم« مضاف إلى التفاعل المفزع في اليمن ليحولها إلى ساحة ترتفع فيه الحناجر بشعارات براقة تختلط بواقع مزري؟!

ويسـار اليمـن مثالاً:

وقد يقول قائل: إن الأزمة اليمنية والحرب الأهلية القائمة هي من صنع القبيلة الحاكمة التي تختفي تحت رداء الحزب، وتسـكن القصر الجمهوري وترفع شعارات الوحدة، بينما تتعاطى القات السياسي، وتسعى في نـفـس الـوقــت إلـى اسـتـثـمـار حماس الدعاة وطيبة الإسلاميين وتعاطف الشارع معهم، ليخوضوا معركتها ويفصلون جـهـــاداً عـلـى مـقـياس المرحلة، وإن الاشتراكيين في جنوب اليمن بتوجههم الانفصالي يحمون شعبهم وثرواته من نزوات الحكم الشمالي وقد يبدأ هؤلاء بسرد مساوئ النظام في الشمال، وما أتت به الوحدة من مآس وأضرار على الشطر الجنوبي السابق، ونحن حين

نحصر التسلسل في هذا المقال حول دور اليسار العربي في المثال اليمني، قد نضطر إلى الاستشهاد بواقع أو مشهد ماثل الآن، لكن ليس الغرض هنا تحليل الحرب الأهلية القائمة أو الممارسات السياسية هـنــا وهناك، بل الغرض إلقاء الضوء على ممارسة اليسار العربي لاسيما في اليمن خلال الأزمة المحتدمة هناك.
يدعي الماركسيون منذ قديم الزمن أنهم وحدويون حتى النخاع ومستشهدون في سبيل يمن واحد، ويكفي للتدليل على ذلك أن تتأمل قائمة الأحزاب اليمنية التي نبتت بعيد إعلان الوحدة والتعددية الحزبية، لتجد أن كلمة »وحدوي« أو »وطني« أو »موحد« أو »اتحادي« تشكل العامل المشترك بينها، حتى إنك تكاد تخلط بينها من شدة التشابه.
واليساريون في اليمن ليسوا مقصورين على الحزب الاشتراكي في الجنوب، بل إن أحزابهم »الوحدوية« في الشمال أكثر بسبب الانفتاح السياسي الذي لا يخشى من تجمعات سياسية كل رصيدها بضعة يساريين حالمين، ومقر مستأجر، وخط تليفوني ومطبوعة لا يقرأها إلا مصحح المطبعة وأعضاء الحزب الطليعي، ورصيد طبعاً يصب فيه حساب يتضخم مع كل دور يلعبه الفتيان اليساريون الوحدوين التقدميون!!
ولا شـك أن الاشتراكيين الجنوبيين هم أكـثــر التيارات اليسارية تطرفاً في قضية الوحدة، فالحزب ظل لأكثر من عقدين يحلم بالوحدة، ويجعلها هدفه الأسمى وقضيته التي لا تقبل المساومة، وحين شكلت الوحدة مخرجاً من الـمــأزق الناتج عن انهيار الاتحاد السوفيتي ووسيلة لتحسين سمعته البالغة السوء في المنطقة (حـــــارب جيرانه السعوديين والعُمانيين والشماليين ثم التفت إلى الرفاق فأوقع بهم مجزرة لا تقارن بشاعتها بالحرب الدائرة الآن)، لم يتردد الوحدويون الاشتراكيون في تبنيها دون أن يكون للشعب في الجنوب أي رأي أو مشورة وبخاصة أنهم قطيع من المتخلفين الذين فشلت الـثـــورة فـي جعلهم من بلوريتاريا الحزب..!
وما أسرع اللحظات التي تمر فإذا الحزب اليوم ينادي بالانفصال ويـقـاتــل مـــــن أجل التشطير، ويهرب قادته من العاصمة إلى المدينة الساحلية الرجعية »المكلا« لكي يكمـلـوا ما بدؤوه من مخطط الدولة التي يستطيعون أن يستمروا في حكمها، بعد أن رأوا لعبة الكراسي الموسيقية تقذف بهم خارج المنافسة في ظل منافسين محترفين في الشمال.
لقد نسف الحزب ورمــوزه الفارين كل البرامج والشعارات والأحلام الوحدوية التي طالما تـغـنــوا بـهــا، وأصبحت كلمة وحدة تثير لديهم حساسية في الصدر، وحكة في الجلد، وتهيجاً في الأعـصــاب، وغدت كل المصطلحات الثورية والوحدوية جريمة لا تغتفر بين الرفاق اليساريين، في الوقت ذاته بدأ اليساريون في الشمال من ورثة الشعارات الوحدوية إزاحة منافسيهم في

الصناعة الوحدوية والسوق الاتحادي، كل ذلك يتم باستخدام نفس المصطلحات الثورية التقدمية اليسارية.
قام الاشتراكيون في الجنوب بثورتهم في سبيل »الكادحين« ومن أجل إنهاء الإقطاع، وإطفاء نار الاستغلال الطبقي الــذي كان يمارسه السلاطين وأصحاب النفوذ ممن يسمون »بالسادة« والسيد هو الذي ينتهي نسبه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وينتشر جل هؤلاء السادة في الجنوب حيث يشكلون طبقة من علماء الصوفية التي تمارس شعوذتها باسم الانتساب إلى آل البيت، لقد صمم الشيوعيون في الجنوب على أن الدين وأتباعه لاسيما السادة هم عدوهم الأول ولاسيما »رابطة أبناء الجنوب« التي كان السادة يتسترون من ورائها ويمارسون من خلالها نشاطهم السياســــي، ومع الردة عن المبادئ الأولى شكل الجنوبيون المنفصلون دولة يرأسها سيد من هؤلاء السادة (البيض)، ويرأس حكومتها سيد آخر (العطاس)، ويدير أمورها في الواقع رئيس الرابطة الصوفية السابق (الجفري)، وتجمع عدداً لا بأس به من سادة آخرين، حتى إن الشارع الجنوبي أسماها »دولة السادة«.
ترى هل هذا تكفير عن اثم الماضي أم جواز سفر مـطـلـوب لإثبات رجعية النظام وقدرته الفائقة على الرقص في حلبة الـدراويــش، وإثـبـــات لـلـجـدية في الانقلاب من متطرفين ماركسيين إلى رجعيين يخدرون المريدين بهجمات الأقطاب وكــرامات السادة الذين طلقوا كل مبدأ ومعتقد؟!
وإن كان الشـيوعيون الملاحـدة في الأمس يعادون المشـايخ التقليديين فإنهم ظلوا بالأمس، ولايزالون يرفعون لافتة ضخمة تقول إنهم ينادون بالدولة العصرية التي لا تتحكم فيها القبيلة كما هو الواقع في الشمال، ويتباهون دائماً بأنهم قضوا عـلـى القـبـلـيـة نهائياً في الجنوب، فهل هذا صحيح؟!
الواقع يقول إن اليساريين شمالاً أو جنوباً قـــد ارتدوا وتشرذموا وانقسموا حسب قانون القبيلة والقبيلة وحدها، فالشمالي لاذ بحصن الفخذ، والجنوبي الشيوعي السابق أصبح أكثر مناطقيةً ورجعية من خصومه، ويكفي أنه تحالف مع قبائل بكيل في الشمال، ومـد يـده إلى قبائل »شبوة« و »حضرموت« بعد أن حطم كـيـانـاتـهـا، وسحلها لمدة عقدين، وبات الجميع يرون أنه لا فرق بين الجمهوريين الوحدويين الذيـن وظفوا العامل القبلي بذكاء، واليساريين السابقين الذين يحاولون أن يطبخوا وجبة قـبـلـيـة باستعجال جعلهم يقدمون وجبة سريعة عسرة الهضم، صعبة الفهم.
ويتهم الماركسيون القدامى ومومياوات العصر الشيوعي في اليـمــن الحـكــم في صنعاء بأنه صاحب علاقات قوية بالإسلاميين المتطرفين، وأنه احتضن الخارجين عـلـى الـقـانــــون والإجماع العربي!! والواقع يقول إن هذه هي أهم الأوراق التي لا يكف قادة الجنوب من التلويح بها كلما حاصرتهم الحقائق وأعياهم الواقع المتناقض، لكن مهلاً فهؤلاء الماركسيون تحالفوا مع قوى متطرفة تدعي العمل الإسلامي مثل »حزب الحق« الزيدي المرتبط بإيران

الدولة صاحبة الباع الطويل في التآمر والإرهاب، ومع هذا لم يعتبروا هذا التحالف الذي استمر طوال فترة الوحدة وحتى قبيل اندلاع المعارك، نوعاً من التطرف أو الأصولية أو الرجعية!
وما دمنا نتحدث عن الرجعية فيكفي أن نتأمل أن الشيوعيين قرروا أن يتحالفوا مع أكثر الفصائل الحاملــة للراية الإسلامية ارتباطاً بالنظم المنقرضة، فقد تحالفوا مع الأحزاب الصوفية الخرافيــة البـائــدة، ومع أتباع النظام الإمامي الزيدي المتلاشي، وربما دأب الماركسيون على جمع شـتـات كـــل الفرق التي تسير في درب الانقراض وفلك النسيان.
وظل الماركسيون يعتزون بتحالفهم مـــع الدول التقدمية في أنحاء العالم لاسيما (صين ماو وشيوعية موسكو) مقابل اتهام أعدائهــم بأنـهـم صنيعة الاستعمار الغربي، لاسيما قائدة الاستعمار العالمي (أمريكا)، كما أن للزمن أحكاماً وللشيوعيين منطق عجيب وقانون انقلاب مخيف، فقد أصبحت صداقة أمريكا والغرب لهم إنجازاً، والتفات مجلس الأمن لهم الذي طـالـما كالوه أقذع الشتائم أصبح وعياً وتحضراً، وأصبحت الزيارات العلاجية لأمـريـكــا وأوروبا مسابقة يتنافس عليها الأمين العام للحزب مع منظر الحزب مع فراش الحزب... الحزب عرف الطريق يا سادة إنه يبدأ في شارع بنسلفانيا وينتهي بمبنى الكونجرس، ومن سبق فاز..!
لقد غــدت مفردات اليسار العربي سهلة الفهم، فهي تساوي اليوم نقيض ما قام عليه هذا التيار ومــــا استورده قبل عقود، ويكفي أن تنظر إلى الموقف قبل عشرين عاماً أيام النضال الثوري، والمد القومي، ثم تنظر إلى موقف اليمين الرجعي، لتخرج بموقف اشتراكي اليوم وشيوعي الحاضـر، إن مفردات الخطاب السياسي هي مفردات الرجعية السابقة مضروبة بالأس ثلاثة.
لقد كانت الدولة الشيوعية في جنوب اليمن مثالاً للتطبيق الصارخ للماركـسـيـين في جميع أنحاء العالم، أما في الغد فلا يستبعد أن يقيم هؤلاء قبة للسيد البيض تـحـج إليها القبائل ويرقص بجانبها الدراويش، وتقوم بتمويل الرحــلات الـسـيـاحـيــة إلـيه شركة أمريكان إكسبرس بالتعاون مع فرع الحزب الاشتراكي في المنطقة.
ولكم أن تتأملوا اليسار في محضنه الغربي، وهـذا الخبل السياسي الذي يصر على أن يقيم كرسي حكمه على جماجم البشر وهياكل الشعارات والمبادئ المفلسة، بينما يغذي جنونه وشبقة شوق عارم للسلطة والنفوذ، ورغـبـــة جامحة للوصول إلى كرسي الحكم، حتى لو أريقت الدماء، وأزهقت الأوراح ومــورس الدجل السياسي بصورة تدعو للخجل، لو كان هناك خلق فضيلة، أو خصلة حياء.

حـــوار

لقاء مع فضيلة رئيس المشيخة الإسلامية في كوسوفو المسلمة

كوسوفو منطقة إسلامية مازالت ترزح تـحــت نير الاستعمار الصربي بعد تفكك جمهورية يوغسلافيا، وعند ما أعلن برلمانها في أيلول 1991 م الاستقلال ونصب زعيمهم (د. إبراهيم دوغوفا)، قامت حكومة الصرب بالغاء حكمهـا الذاتي وربطتها بالحكومة الصربية مباشرة وسامت أهلها سوء العذاب ومازالت، وسبق أن تطـرقـنـا بالتعريف بهذه المنطقة المسلمة مع بيان لمخطط التدمير الصربي لها في العدد (71).

ويسرمجلة »الـبـيـان« في سبيل التعريف بهذه المنطـقـة ورموزها المشهورين، اللقاء مع فضيلة رئيس المشيخة الإسلامية بكوسوفو د. رجب بويا، حـيـث يحــدثـنــا عــن واقع المسلمين ومعاناتهم وما يحتاجونه من دعم وتأييد، والدور المنتظر من إخوانهم المسلمين لنصرتهم. -الـبـيـان-

بطاقة تعريف :

وُلد في مدينة كـلـيـنـا بكوسوفو، ودرس فيها إلى المرحلة المتوسطة، ثم حصل على درجة الماجستير من الجامـعـة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد كانت بعنوان »الألبانيون والإسلام«، ثم حصل على الدكتوراه وقد كانت بعنوان »المسلمون في يوغسلافيا«.

***ما هي أهداف زيارة فضيلتكم إلى بريطانيا، وهل أنتم مرتاحون لنتائجها؟**

في الحقيقة الزيارة هي للتعرف على المراكز الإسلامية والجمعيات والاستفادة منها في العمل الإســلامي، لا سـيـما أنها في أوروبا وهي قريبة منا، وقد استفدنا كثيراً من حيث التنظيم والعمل.

*نرجو لو حدثتمونا عن أبرز التطورات في كوسوفو في الفترة الأخيرة.

.إن قضية كوسوفو شبـيهة بقضية فلسطين، هي الآن محتلة من قبل الصرب وكوسوفو هي أصلاً جزء من ألبانيا، وقــد قـامـوا باقتطاع هذا الجزء، علماً أن سكان كوسوفو من الألبان المسلمين يشكلون نسبة 90 % وفي كوسوفو 100 ألف جندي صربي، ومن قبل كان الوضع لابأس بـه اقتصادياً ولكننا الآن صرنا نُعاني من أزمات اقتصادية لاسيما بعد تسريح 200 ألف عامل من أعمالهم في المصانع والدوائر الحكومية والمستشفيات وغيرها من المرافق.

***هل ملئت هذه الأماكن بالصربيين أم تركت فارغة؟**

.إن الصرب يشكلون نسبة 5 % مـــن السكان، وإن كانوا يحاولون بعد إخراج الألبان من أعمالهم أن يسدوا العجز بغيرهم، ولكن بقيت الكثير من الأماكن فارغة، ومازال الحال هكذا بلا تغيير حتى الآن.

***هل هنالك فرق بين الصرب في ألبانيا والصرب في صربيا، لأن هنالك من يفرق بينهم؟**

.نعم في السابق كانت هنالك فروق بين الصرب المقيمين في كوسوفو ومن هم داخل صربيا، ولكن مع التغيرات انقلب الصرب في كوسوفو وصاروا كالصربيين خارجها في معاملتهم مع المسلمين.

***ما هو الموقف الذي لمستموه من الدول الإسلامية تجاه محنتكم؟**

.إلى الآن لا نكاد نرى شيئاً من الدول الإسلامية، لا مساندة سياسية ولا اقتصادية، وحتى الإعلامية قليلة جداً.

***وهل ينطبق نفس الكلام على الجمعيات الإسلامية وهيئات الإغاثة؟**

.هنالك من الجمعيات من قامت بالمساعدات البسيطة جزاهم الله خيراً وكان من الواجب أن يقوموا بأكثر من ذلك.

***ما هو المشروع الأبرز الذي تودون أن يقوم به المسلمون؟**

.الشيء الذي نطلبه من إخواننا جمـيـعــاً أن يقوموا بالتعريف بقضيتنا، وبهذه المساندة يستطيعون تدارك موقف إخوانهم قبل أن يضـعـفـوا، ونود أن تكون المساعدة في التعليم والصحة والعمل الدعوي الإسلامي، علماً أنه لدينا والحمد لله مدرسة ثانوية شرعية فيها 450 طالباً، وكلية للدراسات الإسلامية بإشرافنا، ولكن هذه المؤسسات تحتاج إلى دعم مادي حتى تؤدي رسالتها، وكذلك عندنا 21 مركزاً إسلامياً تحت إشرافنا.

***معلوم أن قيمة كفالة الدعاة تختلف بين بلد وآخر، فهل يمكنكم أن تعرفونا عن القيمة لكفالة داعية في كوسوفو؟**

.لقد اتصل بنا عدد من الجمعيات لكفالة دعاة وأئمة مساجد، والحمد لله لم نطلب منهم ما يعطى للدعاة الآخرين في الدول الأوربية، فيكفي الداعية مبلغ (200) دولار أمريكي شهرياً.

***إن الأمة البوسنية قد دخلت في منعطف جديد بعد إعلان الحكومة البوسنية المسلمة الاتفاق مع الكروات الكاثوليك، ماذا ترون في هذا الاتفاق وانعكاساته على الأوضاع في كوسوفو؟**

.إن إخواننا في البوسنة أعلم منا بوضعهم واستراتيجيتهم وسياستهم نحوها ولا أستطيع أن أقول شيئاً لعدم اطلاعي على الموقف من قريب، ولكني أقول إنهم يعملون جاهدين لحمل أمانة بلادهم ومسؤولياتها، نسأل الله لنا ولهم التوفيق والسداد.

***هل هناك نشاط بارز للدعاة لرد العدوان الصربي في المدى الطويل؟**

.نحن في المشيخة الإسلامية ليس لدينا دعاة من الخارج، فكل الدعاة من الداخل وكلهم من الإخوة الألبان، وهم مع المسلمين في أمورهم الدعوية والسياسية والاقتصادية ويعملون مع الناس ويساعدوهم في إخراج البلاد من هذه الأزمة، والكل يعمل ويجتهد.

***ما هي الحجج التي يتذرع الصرب بها في احتلالهم لكوسوفو؟**
.إنهم يقولون إن كوسوفو مهد الصرب، فهم من حيث الموقع يرون أنها صربية، وأن الألبان في زعمهم ما هم إلا جالية جاءت من ألبانيا من قبل الأتراك العثمانيين، وهذا الأمر يُصرح به تارة ويُلوح به تارة أخرى، وهم أيضاً يطمعون في أراضي كوسوفو الخصبة والغنية من ناحية الخيرات، فهم يزعمون أنهم ضحوا فيها بالدماء خاصة في حربهم مع العثمانيين ويقولون: لا حق للألبان في هذه الأراضي، وقد حضروا من ألبانيا ولكننا نعتبر أنفسنا من أصل السكان، ولسنا جالية، ونحن مسلمون منذ أجدادنا وهذه هي الحقيقة.
*** كلمة أخيرة لقراء المجلة؟**
.إن كلمتي لإخواننا هي أن يقوموا بالدور الإعلامي لإبراز قضيتنا والقضايا الإسلامية الأخرى، وكذلك مساعدة إخوانهم بكل ما يستطيعون.

المسلمون والعالم

بعد »التطهير«*

مقال مترجم

ترجمة: د. أحمد بن راشد بن سعيّد

الوقت هو يوم الجمعة ليلاً، ومطعم »أدريا« في »بانيالوكا« يغص بالحديث والضحك والموسيقى، لا أحد يلقي بالاً إلى الأرض المهجورة في الجانب الآخر من الطريق، والمكسوة ببقايا مسجد »فرحات باشا«، الذي يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر.. كل مساجد »بانيالوكا« دمرت منذ بداية الحرب.
المسلمون القلائل الباقون في أجزاء البوسنة التي استولى عليها الصرب لم يعودوا يأملون في أي نوع من التدخل، قبل اندلاع الحرب الأهلية في عام 1992م كان عددهم يقارب 350٫000 نسمة، ومنذ ذلك الحين حوالي 90% وعلى جوانب الطريق المؤدية إلى »بانيالوكا« يشاهد المرء حطام بيوتهم وأطلالهم بعض الخرائب الباقية يرتفع عليها العلم الصربي إشارة إلى أن عائلة صربية تنوي إعادة بنائها والسكن فيها، وبعض آخر يفكك بغرض استعمال أجزائها مواداً للبناء.
في بلدة بوسنية يحتلها الصرب وجدنا ثلاثة رجال مسلمين مستعدين للقاء زائر أجنبي، إلا أن الرعب كان يتملكهم من عقاب الصرب إلى حد أنهم لا يريدون أن يُعْلَنَ عن مكانهم ولا عن أسمائهم، أحدهم زعيم ديني وشيخ كبير، لم يقل لنا شيئاً، ولكن دموعه انهمرت على وجنتيه، أصغر الثلاثة سناً وهو يكتب مذكرات يومية لما يعانيه شعبه من اضطهاد قال لنا: »التطهير العرقي« مستمر، في مارس قتل 37 مسلماً و3 كروات في بيوتهم في »بريبدور«، وفي الشهر الماضي امرأة مسلمة اسمها »نورا ميدانوفيتش« تبلغ

الخامسة والثمانين من العمر قتلت في بيتها في »بانـيـالـوكـا«، المسلمون بشكل يومي تقريباً يجلدون في الشوارع والأسواق، والذي يزعج المسلمين أكثر هو سياسة العمالة القسرية التي ينتهجها الصرب، قال الشاب: »هناك 1.500 مسلم يجبرون على العمل الآن«، وأضاف: »إنهم يجعلوننا ننظف الشوارع نقطع الأخشاب، نشذب الأشـجـــار، ونحصد القمح، وقد بدأوا مؤخراً بإرسال كثيرين ليحفروا خنادق في الجبهة، وقد قتل الكثير منهم هناك«.
قلة من المسلمين فضلوا السلامة عبر اعتناق النـصـرانـيـة! امرأة صربية في قرية »بوسانسكا غراهوفو »الصغيرة قالت إن أصدقاء مسلمين لها اختاروا هذا الخيار: »في العام الماضي عمدوا كنصارى أرثوذكس لأنهم يريدون البقاء«.. وقد أرسلوا مؤخراً إلى جبهة »بيهاتش« شمال غرب البوسنة، وأضاف: »إنك لا تتخيل كم هي سيئة حالتهم، إنهم لا يغادرون الخنادق مطلقاً لأنهم سيقـتلون إن حاولوا ذلك، إنهم يقضون حاجتهم ويأكلون وينامون في الخنادق..«.
الأموال المقدمــة مــن »بلغراد« إضافة إلى شبكة تموين سرية قللت النقص (في مناطق البوسنة التي يحتلها الصرب)، والذي أحدثته العزلة والعقوبات الدولية.
فـي »بانـيـالوكـا« الأناناس المستورد وفاكهة »الكيوي« متوفرة بسهولة ويستطيع المقتدرون شراء أزياء حديثة في المتاجر الواقعة على شارع »غوسبودكا«.
الصرب في كل »بانيالوكا« يقولون إن اليونان عملت الكثير لتحسين الأوضاع، فـقـامـت برفـع مستوى التعامل التجاري مع الصرب رغم العقوبات. »كوبر يسانين« أحد الصـــرب قال: »لقد أثبتت اليونان أنها أحسن أصدقائنا« مشيراً إلى أن »تهديـد الإسـلام« فـي الـبـلـقـان قد أجبر الصرب واليونانيين والبلغار على تكوين جبهة مشتركة.

الهوامش :

* عنوان المقال: "After "Clearing، الكاتـب: لارا مارلو المصدر: مجلة تايم، التاريخ: 6 يونية 1994م

المسـلـمون والعالم

أوجـاديـن

انتصارات جديدة للمجاهدين

الإتحاد الإسلامي في أوجادين

تـمـهـيـد:

أوجادين قطاع مسلم تحتله أثيوبـيـا مـنـذ سلمته بريطانيا عام 1948 م، وسبق للمجلة أن عرّفت بهذه المنطقة في عدد سابق، وقد تلقينا هذا التقرير عن انتصارات المجاهدين هناك من مكتب العلاقات الخارجية والإعلام للاتحاد الإسلامي في أوجادين، شاكرين تواصلهم مع المجلة مع دعائنا لهم بالنصر والتمكين. الـبـيـان

((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مـتـم نوره ولو كره الكافرون)) [الصف: 8]

مازالت الهجمات الصليبية المتحالفة مستمرة عـلـى إخواننا المجاهدين في أوجادين، وقد ابتدأت منذ عامين إلا أنها أخذت طابعاً جديداً مـنـذ يوم 10/11/1414 هـ، وقد اختلف الهجوم الأخـيـرعن الهجمـات السـابقة لكونه أول هـجـــوم تشترك فيه أطراف خارجية مباشرة منذ اندلاع المعارك، حيث شاركت في قصف المواقع طائرات أجنبية (غربية)، كما تمثل القوى المحلية الصليبية الحكومة الأثيوبية التي تـشـتـرك في الهجوم البري المكثف، وذلك بعد أن خسرت مليشيات »التجراي« الكثير من محـصـلـــة إحدى وعشرين مواجهة في الفترات الماضية.

وقد أحبط الله كيد الصليبية التي خططت للتصفية النهائية للمـجـاهـديـن في هذا الهجوم الأخير، بفضل الله سبحانه وتعالى ثم للأسباب التالية:

1- أخذ المجاهدون تكتيك عدم التمركز في مناطق معينة، وانتشروا في أنحاء المنطقة وفي طولها وعرضها ليمارسوا حرب العصابات المستمرة في الليل والنهار.

2- بـفـضـــل من الله هطلت أمطار غزيرة لم ير لها مثيل في الآونة الأخيرة وهذه الأمطار ساعدت المجاهدين، كما عرقلت وشلت حركة العدو الذي لم يستطع الخروج من مناطق كثيرة مثل (لغب) حيث انقطعت الطرق، وتعطلت كثير من آلياتهم ومعداتهم العسكرية.

وبعد أن أخفق العدو الصليبي في هجماته المتحالفة بدأ الانتقام من الشعب الأعزل، وأخذ يمارس ضدهم ما يلي:

1- جمع أعيان الشعب وبخاصة المتهمين بأنهم من أنصار الجهاد، وقتلهم بصورة بشعة.

2- جمعوا المصاحف والكتب الإسلامية وكل ما هو مكتوب بالعربية وأضرموا فيه النار.

3- هدمت وأحرقت عدد كبير من منازل الشعب المسلم الأعزل.

4- تقوم الطـائـرات الـحـربـيـــة بقصف آبار الشعب التي تشرب منها المواشي التي يعتمد الناس في حياتهم المعيشية عليها، وذلك حتى يتوقف الشعب عن تأييده للمجاهدين.

معارك وتنفيذ عمليات ناجحة:

قام المجاهدون بتنفيذ عمليات ناجحة في الأيام القليلة الماضية نذكر منها:

1- في 20/11/1414 هـ قام المـجـاهــدون بالهجوم على مطار »جودي« العسكري وتفجيره ليلاً، وكانت عملية ناجحة حيث عاد المجاهدون سالمين.
2- في 21/11/1414 هـ التقت كتيبة مــن المـجـــاهدين ومجموعة من مليشيات العدو في »هطاوي« قرب عاصمة المنطقة »جودي«، ودار بينهما قـتــال مـريـ'ـر كان النصر فيه حليف المجاهدين، وبينما هم يجمعون الغنائم من المعدات الحـربية وصلت الطائرات الحربية المساندة فانسحب المجاهدون من الموقع.
3- في 22/11/1414 هـ تصادمت كتيبة من المجاهدين وقافلة للعدو قرب بلدة »كنجدة« انهزمت قافلة العدو، وتمكنت من الفرار.
4- في 26/11/1414 هـ نصب المجاهدون كميناً لناقلة للعدو تـقــل عــدداً كبيراً من جنودهم، وقد تمكن المجاهدون بفضل الله سبحانه وتعالى من الاستيلاء على هذه الناقلة بعد قتال عنيف، وأصبح من فيها بين قتيل ومشرد، وغنم المجاهدون غنائم عديدة من بينها عدد لا بأس به من البنادق وجهازي لاسلكي، وكمية جيدة من الذخائر.
5- في 5/12/1414 هـ اصطدمت كتيبة من المجاهدين ومجموعة من مليـشـيـات العدو في موقع قرب بلدة »جرسلي«، ودار بينهما قتال مرير استمر عدة ساعات، وأسفرت هذه المعركة عن إبادة المجموعة النصرانية البالغ عددها (40) جندياً، حيث لم ينج منهــم إلا اثنان فقط، وعادت الكتيبة المجاهدة إلى مواقعها سالمة ولله الحمد.
6- فـي 6/12/1414 هـ قام المجاهدون بتنفيذ كميناً ناجحاً لقافلة في مدينة »جـــــودي« العاصمة، حيث اغتالوا جنديين وجرحوا واحداً من مليشيات العدو الصليبي.
7- في 8/12/1414 هـ نصب المجاهدون كميناً لقافلة للعدو قرب مدينة »قبردهري« ونجم عن هذا الكمين تدمير سيارة تقل عدداً كبيراً من جنود العدو الذين صاروا ما بين قتيل وجريح.
8- فـي 11/12/1414 هـ تمكن المجاهدون من تفجير سيارة وقتل من فيها، كما استولوا على سـيــارة أخرى بحمولتها في نفس الموقع، وكان موقع العملية بين مدينة »فبربيح« و »طجبحور«.
9- 16/12/1414 هـ التقت سرية من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو قرب بلدة »شنيلي« ودار بينهما قتال مرير استمر لمدة يوم كامل وبفضل الله فقد انهزم جنود العدو وولى ظهره تاركاً على أرض الـمـعـركة (70) قتيلاً، أما المجاهدون فقد قتل منهم عشرة وجرح خمسة، نسأل الله أن يتقبلهم شهداء في سبيله.
10- في 17/12/1414 هـ اشتبكت كتيبة من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو في نواحي مدينة »طجحبور« ودار بـيـنـهـمـا قتال عنيف استمر نحو ساعتين، وانتهت المعركة باندحار المجموعة النصرانية وانتصار

المـجــاهدين، حيث أسفرت هذه المواجهة عن قتل (47) من الجيش الاثيوبي وجرح ما يربو عن (30) منهم، ومن جانب المجاهدين فقد سقط منهم (3) مجـاهدين، وأصـيب (10) مجاهدين آخـرين نسـأل الله أن يتقبل الموتى شهداء في سبيله.

11- في 28/12/1414 هـ هاجمت سرية من المجاهدين وفي وضح النهار قاعدة للمليشيات التجرانية النصرانية في مدينة »طجحبور«، فقتلوا اثنين من جنود العدو وغنموا بندقيتيهما، وأصيب أحد المجاهدين بجروح طفيفة.

اعتقال الرئيس المحلي بعد عزله:

في 2/12/1414 هـ الموافق 13/5/1994 م قـامـت الـسـلـطــات الأثيوبية باعتقال الرئيس المحلي لأوجادين »حسن جري قلنلي«، ونائبه »أحمد علي طاهر«، وذلك بعد أن رفضا طلب هذه السلطات تسليم السلطة إلى »عبد الرحمن محمد أغاس« المعين من قبلها لما في الأخير من الولاء الشديد إلى الذي يصل إلى درجة العمالة للحكومة الاستعمارية.

وبعد أن تعرض الشعب للخطوات الوحشية السابقة من الـغــارات البرية والجوية التي لا تفرق بين المجاهدين المسلحين وبين الشعب الأعزل، كما تعرضت قيادته السياسية المتمثلة في الحكومة المحلية وبرلمانها المحلي إلى سلسلة من التدخلات والمضايقات أدت إلى زجهم في السجن بصورة بشعة، والجدير بالذكر أن إسقاط الحكومة المحلية في أوجادين واعتقال رؤسائها المحليين هو للمرة الثانية خلال عام واحد.

وبعد هذه الخطوات بدأ في أنحاء المنطقة وبخاصة في المدن الرئيسة مثل »جودي« العاصمة و»قبردهري« و»طجحبور« مسيرات ومظاهرات واحتجاجات على هــذه الـتـصـرفــات غـيــر الإنـسـانـيـة، فـكــان رد الحكومة الأثيوبية أن قامت بمزيد من المداهمات والاعتقالات الجماعية وبخاصة ضد أعضاء الحكومة المحلية والبرلمان، بل تعدى الأمر في هذه المرة إلى إعدام أعداد كبيرة مــن أعـيـان الشعب والوجهاء، فبدأ الشعب يخرج من المدن ليلتحق بالجبهات المسلحة بعد أن لم يـسـتـطـع الصبر على هذه الانتهاكات والممارسات من قبل السلطات الاستعمارية في أديس أبابا، ويلاحظ أن هناك مشاركة فعلية من قبل الشعب في المعارك الأخيرة بعد أن كانت محصورة بين مجاهدي الاتحاد الإسلامي وبين مليشيات »تجراي« النصرانية في خلال العامين الماضيين.

وذلك أن الشعب كان يراهن في انتهاء الفترة الانتقالية للحكومة الأثيوبية، ومن ثم تحديد موعد لإجراء اسـتفتاء عام حـول اسـتقلال أوجـادين ولما انتهت هذه الفترة الانتقالية التي مددت عدة مرات من قبل الجبهة الحاكمة في أديس أبابا (EPROF) اتضح للشعب خرافة الوعود الكاذبة التي ترددها هذه الشـلـة الاسـتـعـمـاريــة بأن لكل قومية أن تحدد تقرير مصيرها، وأن تخـتــار ما تشاء في ظل الدستور الجديد! بل أكثر من ذلك انكشف الوجه الحقيقي

لهذه العصابة المتعصبة التي كشرت عن أنيابها لتمارس سياسة الحديد والنار في قمع الشعب المسلم في أوجادين، وتنكرت لكلامها المـعـســول الذي كانت تردده في الفترة الماضية عندما شعرت أن بإمكانها حسم الصراع لصالحها عن طريق القوة العسكرية بواسطة حلفائها الغربيين، الذين يتدخلون دائماً في الصراع الدائر في القرن الإفريقي لصالح الأقلية الاستعمارية في أثيوبيا، والتاريخ القديم والحديث يثبت صحة ذلك.

وفي صعيد آخر فقد استعدت الجبهة الوطنية لتحرير أوجـاديـــن للمواجهة المسلحة مع مليشيات العدو، وانسحبت قياداتهم من المدن، وأغلقوا معظم مكاتبهم، وقال الأمين العام لهذه الجبهة الوطنية »إبراهيم عبد الله« في مقابلة مع هيئة الإذاعـــــة الـبـريطانـيــة في 28/12/1414 هـ: إن شـعــب أوجــادين يتعرض لحملات إبادة واعتقالات واسعة، بل وتعذيب وإعدامات في داخل السجون الجماعية وقال: أن جبهته تقاتل بجانب مجاهدي الاتحاد الإسلامي لرفع الظلم والضيم عن الشعب في الأوجادين، ولن نضع البندقية حتى نحصل على حقوقنا في تقرير المصير.

وهكذا نجد أن تخطيط الصليبية المتحالفة قد خاب وفشل ((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين))، كما نجد أن الهجوم الواسع الذي اشتركت فيه أطراف أخرى، والذي كان مخططاً منذ فترة طويلة وعلى تمثيل مستوى عال في العناصر المتحـالفة، قـد باء بالفشـل الذريع ولله الحمد وأصبحت نتائجـه عكـسية حيث إن الشعب كله اشترك في المعارك الأخيرة، وأصبحت المسألة بين شعب أوجادين المسلم البالغ ستة ملايين نسمة، وبين المليشيات الاستعمارية الصليبية.

ومما يدل على فشل هذا الهجوم الذي يهدف إلى استئصال المجاهدين وإخماد أي مقاومة منهم أن المعارك والعمليات الناجحة قد ارتفعت بصورة واضحة أكثر من ذي قبل.

ومــن ناحيـــــة أخرى تشير الأخبار الواردة من أنحاء الأوجادين أن معنويات المليشيات الاستعمارية في الحضيض، وأن آثار الملل والإرهاق ظاهرة عليهم لذلك فإنهم الآن يبحثون التفاوض مع قيادات أوجادين لإنهاء التوتر الذي عم في أنحاء المنطقة، إلا أنهم لم يجدوا استجابة حتى الآن لما اشتهروا به من الغدر والخيانة في مفاوضاتهم الماضية.

ونحن بدورنا ننبه أن الحرب الدائرة في أوجادين حالـيـــاً لـيـســـت حرباً بين الإتحاد الإسلامي وبين الحكومة الاثيوبية فقط، وإنما الحرب بين شعب أوجادين المسلم الذي يئن تحت الاستعمار الحبشي منذ قرن من الزمن، وبين الحكومة الاستعـمـاريـــة النصرانية في أثيوبيا، وخير دليل على هذا اعتبار أوجادين منطقة عسكرية منذ أن ضمتـهـا بريطانيا إلى أثيوبيا عام 1948 م ظلماً وعدواناً وإلى يومنا هذا، حيث تندلع في كل عدة سنوات حروب طاحنة لتلخيص المنطقة من أيدي المستعمرين، وما كانت حرب 1977 م

الـمـشـهــــورة بـ (حرب أوجادين) التي تعتبر من أكبر الحروب التي عرفتها البشرية إلا واحدة من هــــذه الحروب.
لذا فإننا ننادي إخواننا في كــل مـكـان أن يقـفــوا إلـى جانب إخوانهم في أوجادين، وأن يستنكروا الانتهاكات والــمـمارسات غير الإنسانية التي يتعرض لها الشعب المسلم من قبل نصارى الحبشة المتعصبين المغتصبين، حيث إن طبيعة المعركة لا تختلف عن طبيعة المعركة القائمة في كل من فلسطين والبوسنة والهرسك.
نسأل الله تعالى أن ينصر عبادة المجاهدين في كل مكان، وأن يجعل الدائرة والذل والصغار على من عادى وظلم.

متـابـعـات

الندوة الدولية حول التقريب في استانبول عـرض وتحـليل

سـعد بن محمد آل عبد اللطيف

أقيمت هذه الندوة في إستانبول بتركيا مـــن 1315 فبراير 1993 م برعاية وقـف دراسات العلوم الإسلامية بتركيا وهي مؤسسة عـلـمـيـة تعنى بالأبحاث والدراسات العلمية، تحت عنوان (الشيعة عبر التاريخ وحتى يومنا الحاضر)، وقد بدأ الإعداد لهذه الندوة والأبحاث التي ألقيت فيها منذ ثلاث سنوات، وقد اشـتـرك فيها ستة عشر عالماً من جامعات تركيا، وقد قاموا برحلة علمية إلى إيران لمدة أسبوعين.
والهدف من هذه الندوة: تدارس التقارب بين الـسـنــة والـشـيـعة!، وما هي العوائق التي تحول دون ذلك.
وألقيت في بداية المؤتمر كلمة ترحيبية يمثل صاحبها أهل الـسـنة!! وكلمة ترحيبة أخرى يمثل صاحبها الرافضة، والأول من بلد له ثقل كبير عند أهل الـسـنة والآخر له ثقل كبير أيضاً عند الرافضة، ولهذا الاختيار مغزى كما ترى، وقد اتفق الطـرفــان على أن الخلاف بين طائفتيهما السنة والرافضة هو خلاف هامشي!!
ثم ألقيت البحوث التي أعدها أساتذة جامعات من تركيا، وفي الغالب كــان يـتـلـو هــــذه الـبـحـوث تعقيب من الحاضرين من علماء ومثقفي الشيعة الحاضرين في الندوة، وسنعرض لبعض أهم هذه الأبحاث عرضاً موجزاً.

الأبــحــاث:

*بحث بعنوان نشأة الشيعة وتطورها، د. أدهم روحي فغلالي رئيس جامعة موغلا بتركيا تحدث في هذا البحث عن منشأ الخلاف وأساسه بين السنة والشيعة وهو مسألة: الإمامة، وذكر أن الشـيـعــــة يسرون أن الإمامة بالنص

وأنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم لأبنائه، وذكر أن الإمـامــة ركن من أركان الإيمان عندهم، ثم تتبع أحداث التاريخ لرصد تطور معتقدات هذه الفرقة أي الإمامية الإثنا عشرية.
ثم جاء تعقيب د. محمد علي آذرتب أستاذ في جامعة طهران بإيران حيث شكك في دعوى أن الإثنا عشرية يقولون بأن إمـامة علي بن أبي طالب كانت بالنص، وعرف التشيع بأنه هو الاعتقاد بأن علي بن أبي طالب وأهل البيت أفضل الناس للخلافة بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقط، ثم ذكــر وعلى حسب زعمه أن أغلبية الصحابة لم يبايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم ذهب يطعن في الأمويين والعباسيين(1).
*بحث بعنوان آراء الشيعة في عـلــوم الـقـرآن، د. موسى كاظم يلماز من كليات الإلهيات بجامعة طهران، وتحدث فقال: إن القرآن جـــاء بالتواتر دون زيادة ولا نقصان، بخلاف الرافضة القائلين بوقوع التحريف في كتاب الله بأقـــوال علـمـائهــم ونقلاً عن مصادرهم، وجعلها على قسمين: القسم الأول المصادر والأقوال للعلماء المتقدمين مـنـهـم ما قبل القرن الرابع ، والقسم الثاني العلماء القائلين بهذا القول ممن عاشوا ما بين الـقــرن الـرابع إلى القرن الرابع عشر الهجري ثم ذكر قسماً ثالثاً وهم القائلون بعدم وقوع التحريف.
ثم جــاء التعقيب من محمد باقر حجي أستاذ كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية بجامعة طهران الــذي أكـــد فـي أول الأمر أن القرآن الكريم جمع في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وليس في زمن أبي بكر كما قال الباحث، ثم زعم أن الرافضة لا يقولون بتحريف القرآن، وأن الروايات التي في هذا الباب هي ضعيفة السند وهي مخالفة للقرآن والسنة والإجماع!! ثم ذكر عدة كتب لهم تنفي القول بتحريفه وقال: لو أن وجود روايات تدل على التحريف عند الشيعة يعني أن الشيعة يؤمنون بتحريف القرآن لكان وجود الروايات الكثيرة الدالة على التحريف في نطاق واسع عند أهل السنة! هي أيضاً دليل على اعتقاد أهل السنة بالتحريف!! ثم ذكــر بعــض هذه المرويات التي على فرض صحتها من جهة السند فليس فيها دلالة على التحريف، من ذلك ما جاء في كتب الحديث أن آية الرجم نسخت تلاوة وبقيت حكماً، ففي هذا الحديث دلالة على وقوع التحريف في القرآن الكريم كما يزعم! ولا شك أن ذلك سفسطة(2).
*بحث رأي الشيعة الأمامية الإثنا عـشـريــة فـي التفـسـير، د. علي أوزك كلية الإلهيات بجامعة مرمرة تحدث عن عقيدة الإمامة عندهم وكون الإمام لابد أن يكون معصوماً، وذكر أمثلة على تفسيرهم وتأويلاتهم لآيات القرآن الكريم في دعـــوى الإمامة والنص فيها فيما يرى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه من بعده.

ثم ذكر أركان مذهبهم وهي: العصمة، المهدية، الرجعة التقية وكيف أنهم أولوا آيات القرآن الكريم لتسويغ هذه الأركان والاستدلال على أهميتها وشأنها في الدين عندهم.
ثم تعرض للخصائص المشتركة كما يرى بين السنة والشيعة، وهي: التوحيد النبوة المعاد، ولكن المعلوم أنهم نفاه لصفات الله عُبّاد للقبور غلاة في أئمتهم، معرضون عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، معادون للصحابة رضوان الله عليهم... إلى آخر معالم مذهب القوم.
ثم ذكر الباحث أن العلم بالقرآن الكريم وبتفسيره هــو خــاص بالنبي وآل بيته رضي الله عنهم فقط، وذكر أن الإمام عندهم له أحقية التشريع!
ثم علق المهدي الحسيني الروحاني بأن أركان الدين الأربعة لـيـسـت أركان بل هي أمور وقضايا فرعية! وأصول الدين عندهم هي خمسة: التوحيد العدل النبوة الإمامة، وقال: إن القول بأن الشيعة ترى أن للإمام أحقية في التشريع يجب اتباعه على ما يرى والتصديق بما يقول كذب عليهم! بل هو قول أهل السنة الذين جعلوا الصحابة رضوان الله عليهم لهم أحقية التشريع!! وهو يشير هنا إلى مسألة قول الصحابي وحكم الأخذ بقوله، وهي مسألة أصولية وقع فيها الخلاف بين أهل السنة، ثم زعم أن أهل السنة يقولون كما تقول الشيعة بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، (كذا زعم!)(3)
كان هذا التعليق المتهافت سبباً في أن يعقب الباحث د. علي أوزبك على تعقيب الروحاني، حيث قال: إن المقصود في اجتماعنا هو الوصول إلى الحق والتجرد له دون محاكمة الصحابة وآل البيت(4).
*بحث بعنوان أصول الدين عند الشيعة، د. عوني إنحاف كلية الإلهيات بجامعة 9 سبتمبر تحدث في بحثه عن أصول الدين عندهم، وهي: التوحيد والعدل، وقد وافقوا المعتزلة في هذين الأصلين: التوحيد بنفي الصفات والعدل بنفي القضاء والقدر.
الأصل الثالث النبوة، والرابع الإمامة، والخامس المهدوية، والسادس المعاد، بالإضافة إلى الرجعة والتقية، ثم شكك الباحث في كونهم يعتقدون بتحريف القرآن، ويرى أن التقية أمر طبيعي ربما احتاج له المسلم العادي إذا ما خاف على نفسه أو على من يعز عليه، وبخاصة وأن منهم الإثنا عشرية الذين لاقوا وذاقوا الكثير من المحن والمصاعب، فكان هذا دافع للتستر خلف ستار التقية.
ثم جاء تعقيب آية الله مهدي الحسيني الروحاني الذي قال: إن كلمة الشيعة تعظم أئمتهم كما زعم فإن هذا التعظيم لا يعدو مثل تعظيم أهل السنة للصحابة!! ثم ذكر أن قومه يوافقون الأشاعرة في تنزيه الله عز وجل يعني نفي بعض صفات الله عز وجل بخلاف من وقع في التشبيه من أهل الحـديث السلـفيين والحـنابـلة وابـن تيميـة وأتبـاعـه من الوهابيين! (كـذا زعم).
ثم يعود ويذكر أن المعتزلة هم الذين أخذوا هذين الأصلين عنهم: العدل والتوحيد لا العكس، وهذا ادعاء غير صحيح، فإن الشيعة ومتقدميهم بخاصة

كالروافض كانوا في أول أمرهم مشبهة ومن رؤوسهم في هذا الباب كما هو معـروف هشـام بن الحـكم، ثم تحـولـوا إلي الاعتزال ونفي القول بنفي القدر ثم كيف يزعم في أول الأمر أنهم وافقوا الأشاعرة في باب التوحيد؟ وهنا يرى أن المعتزلة قد وافقوه؟ والأشـاعرة تثبـت بعض الـصفات وتنفي بعضـها الآخـر أما المعتزلة فينفون جميع الصفات، فهل وافقت الرافضة حينما قالت بنفي بعض الصفات أو نفي الكل؟! ثم يوافق الباحث في أنهم لا يقولون بتحريف القرآن!! ويخالف الباحث في أن التقية والرجعة والبداء ليست من العقائد بل هي من المسائل الفرعية.

*بحث بعنوان مناقشة آراء الإمامية وتقييمها حول موضوعات أصول الدين، د. يوسف شوقي ياووز كلية الإلهيات بجامعة مرمرة تعرض لما تعرض له زملاؤه السابقون، ثم أشار إلى أن التقية والعصمة والإلهام الغيبي كانت وراء ما أسماه بـ الإمامية الإلهية.

ثم تحدث الباحث بمرارة عن عقيدتهم في أئمتهم المجتهدين، وأنها فتحت باباً للظلم والاستبداد والعبودية، ونقل عن أحد علمائهم أنهم يرون طاعة المجتهدين من علمائهم في كل شيء، ومن رد عليه فهو راد على الإمام والراد على الإمام راد على الله(5).

*بحث بعنوان الفكر الشيعي من التقية والانتظار إلى الولاية المطلقة، أحمد الكاتب، تحدث في بحثه عن الفكر السياسي الشيعي مرحلة الانتظار والتقية حيث تجمد الحدود عندهم والقضاء وغيرها من الأمور حتى يخرج الإمام من السرداب، وهناك من قال بفكرة النيابة وذلك بأن يقوم الفقهاء بالقضاء وأخذ الزكوات وغيرها.

وكانت النيابة بذرة لفكرة وعقيدة ولاية الفقيه التي تطورت على يد الخميني حديثاً حيث أخذ يبث هذه الفكرة بين طلابه في النجف، وألف في شأنها كتابه الحكومة الإسلامية، ثم قام بالتطبيق العملي لهذه الفكرة حينما وصل إلى سدة الحكم في إيران، وللحكومة الإسلامية وتحت ستار ولاية الفقيه أن تفعل ما تشاء، فلها مثلاً أن تهدم المساجد إذا رأت ذلك، أو تمنع أفراد الشعب من الحج إلى مكة المكرمة... إلى غير ذلك(6).

*بحث بعنوان التقية والعصمة والإلهام عند الشيعة الإمامية د.موسى الموسوي رئيس المجلس الإسلامي في لوس أنجلس بأمريكا قال في شأن التقية: كانت ولازالت لها آثارها السيئة في حياتنا، ولازلنا ندفع ضريبتها الباهظة.

وضرب أمثلة على عقيدتهم التقية فقال: إن عقيدتهم في الخلفاء الراشدين عقيدة غير حسنة كما تشهد بذلك كتبهم ولكنهم يضمرون هذه العقيدة أمام أهل السنة ويقولون فيهم قولاً حسنا.

ويرفض أن تنسب عقيدة التقية إلى الأئمة من آل البيت، ثم قال عن عـقـيدة عصـمـة الأئمـة: إنما وضعت هـذه العقيـدة لأجـل غـايـة وهي القـول بـ الإمامة الإلهية، وشهد شاهد من أهلها(7).

وهناك أبحاث أخرى منها: الثورة الإسلامية الإيرانية والشيعة في القرن العشرين، الشيعة من القرن العاشر إلى القرن العشرين(8)، فروع الدين عند الشـيعة، العبادات في المذهـب الجـعفري، التصـوف عند الشـيعة الزيدية... وغيرها من الأبحاث.

وفي الختام:

توالت كلمات الحاضرين من أهل السنة من غيرالأتراك من رعايا الدول العربية وباكستان ممن هم على مذهبهم بالثناء على هذه الندوة، ودعوتها إلى الوحدة الإسلامية ونشر المحبة بين الفريقين أهل السنة والشيعة ، إلا أنهم أكدوا على جوب توضيح موقفهم أي الرافضة من مسألة وقوع التحريف في القرآن الكريم ومسألة سـب الصـحـابـة وتحذيرهم عامتهم من الوقوع في هاتين المسألتين، كما دعى ممثل إيران إلى أن يكون الاجـتـمـــاع القادم في إيران وبإشراف مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية الموجود هناك(9).

وقفات مع هذا المؤتمر:

أولاً: يـتـمـيـز هذا المؤتمر أو الندوة بالطابع العلمي الأكاديمي إلى حد ما ومن ثم فهو ليس كغيره من مؤتـمــرات التقريب التي يغلب عليها الجانب العاطفي والدندنة حول شعارات الوحدة الإسلامية ومواجهة الأعداء...الخ.
ولكن ينقص أصحاب هذه البحوث الشيء الكثير من الـتأصيل العلمي الشرعي للموضوعات المطروحة، وما يترتب على مـعـتـقـداتـهـم تـلـك مـــع أهمية عدم الاغترار بزخرف قولهم وبخاصة وأنهم أهل تقية، ومعرفة أقوال سلف الأمة والـعـلـماء والمعتبرين المعاصرين فيهم، والرجوع إلى كتب الملل والنحل لمعرفة حقيقة مذهبهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كيف تعرف ذلك إلا بمعرفة أحكام وشرائع هذا الدين من مصدريه الصـحـيـحين الكتاب والسنة والتجرد للحق ونصرته دون مواربة أو مجاملة أو عواطف زائفة؟!
فهناك من الباحثين من هَوّن من شأن في إثبات الصفات المثلى لله عز وجل كما دلت على ذلك النصوص الشرعية كما هي عقيدة أهل السنة أما القوم فهم ينفون هذه الصفات، فيرون أن الأمر ليس ذا أهمية وأنـهــا قـضـية هامشية؟!وهناك من شكك في كونهم يقولون بوقوع التحريف في القرآن وغيرها من الأخطاءالثابتة فعلياً في مراجعهم المعتمدة.
ثم لابد للباحث من الحصيلة العلمية الـشـرعية الصحيحة والعقيدة والتصور الصحيح من أجــل التقييم الصحيح على وفق منهج أهل السـنـة والجـمـاعـــة، ومما يدل على ضعف الحـصـيـلة العلمية الشرعية عند هؤلاء الباحثين، عدم تعرضهم لـتـوحـيـــد العبودية عند أولئك، وبخـاصـــة وأن مواقفهم معروفة في هذا الباب، كيف لا وهم يـحـجـــــون إلى قبور أئمتهم؟! كما هو معروف في مشاهدهم في العراق وإيران مثلا.

ثانياً: الغاية من الـمـؤتـمــر والمقصد منه هو التقريب، وهي غاية فيها نظر، فهل يجوز التقريب بين أهل السنة والمبتدعة، فضلاً عن أولئك؟! وهل المقصود من التقريب التنازل من أهل السنة عن عقائدهم!! أم هل يمكن الاجتماع معهم وهم يقولون بوقوع التحريف في كتاب الله ويردون السنة؟! ويكفرون الصحابة.

ثالثاً: عـنــد وقـــوع التنازع بين أهل السنة والقوم سيقوم أهل السنة بالرجوع إلى الكتاب والسـنة عند وقوع هـذا الاخـتلاف والتنـازع، عمـلاً بقوله تعالى: ((فإن تنازعتم في شيء فــردوه إلـى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويـلاً))

[النساء: 59]، أما أولئك فيقولون أن القرآن الكريم محرف وربما أولوه على أهوائهم، أما السنة فهي عندهم ما نسبوه إلى أئمتهم (فقط)، ويطعنون في الصحابة رضوان الله عليهم إلا القليل منهم ويطعنون في السنة إلا أحاديث معدودة، يقدمون أقوال علمائهم ومراجعهم في الحوازات العلمية على نصوص الوحي، فكيف يتفق الفريـقـــان بــل كـيف يلتقيان؟!

رابعاً: توصل بعض الباحثين إلى نتائج طيبة في معرفة عـقـيـدة القـــوم مــن القول بوقوع التحريف في القرآن الكريم إلى الطعن في الصحابة، إلى التقية والعصمة وغيرها، ولكن ماذا يترتب على هذه العقائد من حكم قائلها، وكيف نتعامل معه على ضوء معتقداته الفاسدة؟ هل يمكن بعد كل ذلك أن نجلس معه ونتحاور ونثني عليه ونحسن الظن؟!

كيف نكون مع قوم يطعنون في كلام الله ووكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفي صحبه الأطهار، ويرجون ليوم يظهر فيه إمامهم المزعوم لـيـهـدم الكعبة ويقتل أهل السنة ويبطش بهم؟! كيف يؤمن جانبهم وهذا ما يؤمنون به، وإلى متى نبقى سذجاً إلى هذا الحد؟!

الهوامش :

(1)انظر لبيان أن الإمامة للإمام علي ليست بالنص (منهاج السنة) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(2)انظر إلى كتاب (الشيعة والقرآن) لإحسان ظهير، و(الشيعة وتحريف القرآن) للأستاذ محمد مال الله، من واقع كتبهم المعتبرة.

(3)انظر لمناقشة مسألة أن للقرآن ظاهراً وباطناً في كتاب (التفسير والمفسرون) للشيخ الذهبي، وكتاب (الفكر الصوفي) للشيخ عبد الرحمن عبدالخالق، وكيف دحضاها.

(4)انظر الشيعة والتفسير (د. علي السالوس) و(الشيعة والسنة) لإحسان ظهير.

(5)انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام، ومناقشتهم في هذا الباب مناقشة علمية.

(6)انظر (دراسة في ولاية الفقيه) د. محمد عثمان، ومعلوم أن كثير من علماء الشيعة مثل (كاشف الغطاء) نقد هذه الفكرة التي اخترعها الخميني.
(7)انظر (الشيعة والتصحيح) لموسى الموسوي، لمزيد من الإيضاح لهذه المسألة.
(8)انظر (الثورة البائسة) لموسى الموسوي، و(جاء دور المجوس) د. الغريب.
(9)انظر (رسالة التقريب بين الشيعة والسنة) د. القفاري، من منشورات دار طيبة بالرياض، حيث ناقش هذه المسألة بما لا مزيد عليه.

في دائرة الضوء

محاسبة النفس ونقـد الـذات
رؤيـة دعويـة لإصلاح المسار

عبد العزيز بن محمد الوهيبي

تـمـهـيـد:

لقد سرني وأثلج صدري ما كتبه الأخوان الفاضلان الأستاذ/ جمال سلطان في مقاله (الدعوة السلفية رؤية نقدية)، وما كتبه الأستـاذ/ أحـمـد الـصـويان في مقاله (الاستبداد الدعوي) اللذين نشرا في العدد (73) من هذه المجلة فهيج ذلك الـمـقـالان شـجـنـاً قـديـمـاً عـنـدي، وأحـبـبـت الإدلاء بدلــوي في الموضوع بهذه المقالة، عسى أن تدفع هذه المشاركة الآخرين لتناول تلك القضية من زوايـــا أخـــرى تعين على وضوح الرؤية، وسلامة الفهم، وحسن السلوك. والله من وراء القصد.

ثمة عيبان بارزان، وشاهدان عدلان على ضـعـف الإنـســان وعجـزه وقصوره، هما: الظلم والجهل.

((إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحـمـلـنـهـا وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ..))[الأحزاب: 72].

هاتان الآفتان هما أساس كل بلاء، وجذر كل نقص في بني آدم، ويمكن رد كل آفة أو عيب من غيرهما إلى هاتين الآفتين مباشرة أو بطريق غير مباشر. والوعي بهاتين الآفـتين والسعي لتلافيهما دلالة على سلامة المنطلق، ونجاح المآل بإذن الله تعالى.

آفـة الـظـلـم:

وهي الـعـيـب الأول، وهو عيب أخلاقي وله مظهران: المظهر الأول فردي يتمثل في أسوأ صـورة، التي تتمثل في الشـرك بالله تعالـى،يقــول سبحانه: ((إن الشرك لظلم عظيم..)) [لقمان: 13]، وأي ظلم أعظم من الشرك بفاطر الأرض والسموات؟!

والمظهر الثاني لهذا العيب الخطير جماعي متعد، يتمثل في ظلم الناس، وأسوأ صورة له هي الكبر الذي قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- (الكبر بطر الحق وغمط الناس... (1)، وقال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...)(2).

آفة الجهل:

وهي العيب الثاني، وهو عيب معرفي ويتجلى هو الآخر في مظهرين: المظهر الأول الجهل بالشريعة المنزلة على محمد -صلى الله عليه وسلم-، وذلك بالإعراض عنها كلياً وهو حال الكافرين المستكبرين الذين قال الله عنهم: ((والذين كفروا عما أنذروا معرضون))[الأحقاف: 3]، أو الإعراض عن بعض ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو حال العصاة الفاسقين، أو المبتدعة الزائغين، الذين قال الله عن أشباههم: ((أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب..)) [البقرة: 85].
الأمر الذي يؤدي إلى التفرق والاختلاف، ((فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة..))[المائدة: 14]، ذلك الجهل وذلك الانحراف نابعان من اصطناع منهج منحرف في الاستدلال كمناهج الصوفية والباطنية، أو قصور المنهج المعتمد كمناهج الخوارج، وتلك صورة تتكرر، وماتزال حيث تتمسك بعض الطوائف ببعض الجوانب التي حث عليها الإسلام وأمر بها، فتجعل منها قضية الإسلام الأولى والأخيرة وتتمسك طائفة أخرى بجانب آخر وتعطيه الأهمية نفسها، وتنكر الواحدة منهما على الأخرى وتقاطعها وتدابرها، وتتمزق الصفوف، وتبدد الجهود وربما وصل الأمر إلى التفسيق والتبديع، بل ربما وصل الأمر إلى التكفير وإهدار الدماء، نسأل الله السلامة والعفو والعافية.
تلك بعض آثار المظهر الأول من مظاهر الجهل.
المظهر الثاني وهو الجهل بالواقع: إذ أن الشريعة أحكام كلية وضعت لتعالج أحداثاً جزئية، ولذلك لابد من فهم الواقع بشكل صحيح، من أجل تنزيل أحكام الشرع عليه، ومن صور الجهل بالواقع اصطناع منهج في الفهم والتحليل يقود دائماً لفهم خاطئ ومعالجة خاطئة، ومن الأمثلة الشهيرة في التحليل السياسي على سبيل المثال نظرية المؤامرة، تلك التي ترجع كل الأحداث والوقائع والمستجدات لمؤامرة عالمية واحدة يختلف في تحديدها ولكن النتيجة واحدة مؤامرة شديدة الإحكام، شديدة الدقة، شديدة النجاح لا نملك إزاءها صرفاً ولا عدلاً، وتحيط بكل شيء علماً، قد تكون خلف هذه المؤامرة الماسونية السرية، ذات القيادة الخفية، وهي حكومة عالمية خفية تجتمع وتخطط، وتدبر كل شيء، وكل هذه الحكومات والدول والمنظمات إنما هي أحجار على رقعة الشطرنج، تتحرك وفق مخطط مدروس كي تنفذ لعبة الأمم، وتعبث بمقدرات الشعوب..

هذه النظرية ليست مختصة ببعض المسلمين، بل هي منهج مريح يعفي من تبعات التحليل والتدقيق والمراجعة، وكانت سائدة في بعض المدارس التحليلية الأمريكية عندما كانوا يرون الشيوعية خلف كل خطر يتهددهم كما هو لدى المكارثية.

تلـــك أربعة فروع من فروع الخلل السلوكي (الأخلاقي) والخلل المعرفي تتفرع عنها فروع أخـرى كثيرة.

مدارس فهم النص:

في المسألة المعرفية الاستدلالية نود طرح هذا السؤال: هل جاء الإسلام بمفردات نصوص تؤخذ هكذا مبعثرة، ويتعامل مع كل نص بمفرده كأنه منهج مستقل وتشريع منفرد، أم ينظر إلـيـه كـمــا ينظر إلى الخلية في الجسد الحي لا قوام لها إلا به، ولا حياة لها إلا بحياته، وعزلها وفصلها يعني موتها المحقق..؟! ثم إذا سلمنا بأن الشريعة كل متكامل يصدق بعضها بعضاً، ويؤيد بعضها بعضاً كما قال الله تعالى: ((الله نزل أحسن الحديث كتاباْ متشابهاْ مثاني))[الزمر: 23]، فأي هذه النصوص هو المحور، وأيها الأطراف؟! أيها هو العمود الفقري، وقطب الرحى الذي لا قيام لغيره إلا به..؟! أيها المحكم الذي يمكن من خلاله فهم المتشابه... الملتبس الغامض..؟! ولنأخذ على ذلك مثلاً توضيحياً سريعاً: في مسألة الموقف من عـصــاة الموحدين في شريعة الإسلام، فنحن نجد هنا مدارس متعددة في فهم النص وإدراكه أشهرها ثلاث:

أولا الخوارج: الذين آمنوا بأن النص المحكم في هذه المسألة هو قول الله سبحانه وتعالى: ((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا..))[الجن: 23]، وكل نص خلاف هذا النص فهو عندهم مردود عليه ، فنصوص مغفرة الذنوب دون الشرك، مثل قوله سبحانه: ((إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك..))[النساء: 48] ، المقصود بها ما دون الكبائر.. وهكذا ، ومن خلال هذا الفهم السيء فإن مرتكب الكبيرة المصر عليها كافر خارج من الملة مخلد في نار جهنم والعياذ بالله..!!

ثانياً المرجئة: الذين قالوا بأن النص المحكم في هذه المسألة قوله سبحانه وتعالى: ((قل يا عبـادي الذين أسـرفــوا عـلـى أنفـسـهــم لا تقـنطــوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاْ))[الزمر: 53] ، وكل نص يفهم من ظاهره خــلاف هــذا الـنـص فـهــو غـيـر مراد والواجب تأويله، فمثلاً الآية التي استدل بها الخوارج على مقولتهم السابقة، فإن المقصود بالمعصية في الآية هو المعاصي المكفرة كالسخرية بالدين، أو ذم الرسول-صلى الله عـلـيــه وسلم-، أو كراهية ما أنزل الله... الخ.

ثالثاً مدرسة الصحابة أو المنهج الحق: أما علماء الصحابة ومن اقتفى أثرهم، فقد رأوا أن في المنهجين خللاً معرفياً استدلالياً ظاهراً، ذلك أنه في حقيقة الأمر فإن الآية المحكمة في الـبــاب هي قــولـه سبحانه وتعالى: ((إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء..))[النساء: 48] ، فـبـهـذه

الآيـــــة تجتمع أطراف النصوص ويفسر بعضها بعضاً، فنصوص الوعد بالجنة للموحدين العصاة الذين يقترفون الكبائر، هي بعد تطهيرهم في النار حيناً من الدهر، أو بمغفرة الله سبحانه وتعالى لهم، ونصوص الوعيد على المعصية المقصود أن الفاعل لها مستحق للوعيد وقد يـعـاقـب بذلك الـعـقـاب، وقد يغفر الله له، أو تكفرها طاعاته أو البلاء الذي يصيبه في الدنيا، أو غير ذلك مـــن الأسـبـــاب، ولا ريب أن فهم السلف هو الفهم السديد، وهو مقتضى النصوص الواردة المتواترة في إقـامــة الحدود على مرتكبي الكبائر، إذ لو كانوا كفاراً لوجب قتلهم، ولغير ذلك من الدلائل.

ولا ريب أن هذا الفهم هو الذي يعصم المجتمع من التمزق والحروب الداخلية الناجمة عن رؤية وفهم الخوارج، كما يعصمه من التحلل وانتشار الفساد والجريمة الناجم عن الرؤية الإرجائية.

ومن هنا نفهم حقيقة قول الله سبحانه: ((فإن تنازعتم في شـيء فردوه إلى الله والرسـول إن كنتم تؤمـنون بالله واليوم الآخـر ذلك خـيـر وأحسـن تأويـلاً)) [النساء: 59]، فالرد إلى الله والرسول ليس عملاً تعبدياً فقط ينجو به الفاعل من عذاب الآخرة، بل هو أيضاً أحسن مآلاً ومصيراً في الدنيا للأفراد والجماعات.

ولقد دلت نصوص الكتاب والسنة على الأهمية الكبرى لمراجعة المسيرة ونـقــــد الذات، والنصوص في هذا كثيرة جداً، فمن ذلك قوله سبحانه: ((والمؤمنون والمؤمنات بـعـضـهـم أوليـاء بعض يأمـرون بالمعـروف وينهـون عن المنكر..))[التوبة، 71]، فجعل سبحانه وتعالى مناط الولاء هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك ظاهر لا ريب فيه، إذ إن المداهن الساكت عن مخـالفات أخيه يكون في صدره حرج منه، كما أن لأخيه حرجاً هو الآخر إذ هو يعلم أن أخـاه منكر في نفسـه لهذا الفعل، ولكنـه لا يبين لـه هذا الإنكـار مما يدل على وجود حاجز بينهما، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ((لعن الذين كفـروا من بني إسـرائيل على لسـان داود وعيسـى بن مريم ذلـك بما عصـوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون..)) [المائدة: 78، 79] ، فكان سبب حلول اللعنة عليهم ترك التناصح والتذكير.

ولـقــد حـفـلـت نـصــوص الـكـتــاب الكريم والسنة المطهرة بالكثير من التقويم والمراجعة والتصحيح، فمن ذلك الآيات في غـــــزوة بـدر الـكـبـرى التي فرقت بين الحق والباطل، واختلاف أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فـي قسمة أول غنـائم يحصـلون عليها، ونـزول سورة الأنفال تعالج هذا الحدث العظيم: ((يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم..))[الأنفال:1، 2]، وهكذا تمضي الآيـــــات متوالية في درس تربوي طويل وعظيم وعجيب..

ومع نزول هذه الآيات، وبعد عام فقط، تكون الأنفال هي السبب الأساس في هزيمة أحد، وتتنزل الآيات لا تجاملهم ولا تحابيهم رغم هزيمتهم وألمهم يتنزل فيهم قوله سبحانه: ((ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يـريـد الدنيـا ومـنكم من يـريـد الآخـرة ثم صـرفكم عـنهم ليبتليكم ولـقـد عـفـا عنكم...))[آل عمران: 152].

هكذا يجتمع عليهم الدرس العملي القاسي بالهزيمة، والدرس النظري بالملامة، كتاباً يتلى إلى يوم القيامة، ويسمع به خصومهم، ولا يقال: ربما شمت الأعداء بنا.. ربما وربما..، بل يكون البيان في وقت الحاجة إليه والتذكير في قمة الانفعال، ليكون ذلك أبلغ وأعمق أثراً.

وفي مواقع وأماكن وحوادث كثيرة أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تستقصى، حتى لقد صح عن بعض أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كنا لا نتباسط مع نسائنا والوحي ينزل مخافة أن ينزل فينا شيء، حتى إذا قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تباسطنا ..!! بهذه الحساسية كانوا رضوان الله عليهم يتلقون الوحي، ويستمعون إليه.

ضرورة المحاسبة والمراقبة:

من هذه النصوص ومن غيرها، ندرك الأهمية القصوى لمحاسبة النفس ومراجعة المسيرة، وتصحيح الطريق، وهي حقيقة موضوعية تنبه لها عقلاء البشر وأسوياء العالم، فوضعوا لهذا الغرض مجالس الشورى ودواوين المراقبة، وغير ذلك، ومن هنا كانت الأهمية الكبرى لأن يتعود الدعاة وقفات المراجعة ومجالس المناصحة، ومؤتمرات التصحيح، وأن يرحبوا بالنقد الهادف ويصبروا على التوجيه الإيجابي، بل ويصنعوا الأدوات والآليات التي تضمن لهذا النقد وذلك التوجيه أن يـؤتي ثمـاره وينتج فوائده المرجوة.

خلل في زوايا ثلاث:

وسأتطرق لهذا الموضوع في هذه العجالة من زوايا أساسية ثلاث ، أرى أن الخلل يظهر واضحاً فيها وهي:

أولاً فقه المقاصد وغايات الدين الكبرى:

ففي هذه الزاوية يظهر خلل عميق شديد الإيذاء في فهم كثير من الدعاة والجماعات للغايات الكبرى للدين، وترتيبها فيما بينها، وفي ترتيب الأولويات ويتجه كثير من هؤلاء إلى التعامل مع هذا الموضوع ومع جميع القضايا إلى التفكير البسيط المختزل، ومن خلال هذا التفكير المبسط لدرجة الإخلال يتحرك الفرد والجماعة، ويرسم طريقه، ويحدد مساره.

فمثلاً يسأل سائل: لم خلق الله الخلق؟ فتكون الإجابة: ليعبدوه وحده سبحانه وتعالى، بدليل قوله تبارك وتعالى: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...)) [الذاريات: 65] ، أي يوحدون.

ثم يسأل: وما التوحيد؟ فيجاب: هو إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة وهو ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، ثم ينسى توحيد الألوهية ويركز على النوع الأخير لأنه النوع الذي يكثر فيه الانحراف حسبما يرى، فلا يتحدث إلا عنه ولا يناقش إلا فيه، ولا يدندن إلا حوله وينسى أولاً أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة، وأن عمارة الأرض، ورحمة البشرية، والقوامة على الناس من أنواع هذه العبادة ، وأن الله تبارك وتعالى جعل وجود الجماعة لتحقيق هذا الغرض، والقيام بهذه الرسالة، فقال سبحانه: ((هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..))[هـود: 61] ، أي طالبكم بعمارتها.

ولذلك يغيب هذا البعد للأسف الشديد عن أذهان كثير من الإخوة الدعاة، فلا يلتفتون إليه، ولا يعالجونه، ولا يسألون عنه، بل ربما نظر إليه بعضهم نظرة نفور وتنفير، بل ربما نظرة تبديع وتضليل، فيرون الاهتمام بإعداد القوة التي أمر الله بها: ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..))[الأنفال: 60] يرون ذلك نوعاً من التساهل وتضييع قضايا الدين، ويجهلون أنهم إنما جعلهم الله تبارك وتعالى للشهادة على الناس والرحمة للعالمين: برهم وفاجرهم مسـلمهم وكـافرهم: ((وما أرسـلناك إلا رحمـة للعـالمين))[الأنبيـاء: 107] ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس..))[البقرة: 143] ولذلك فهم لا يقومون بأي جهد لعمارة الأرض على أحسن صورة، ولإعداد القوة، وللشهادة على الناس.. بل تراهـم يُزَهّدون في فهم الواقع، وفي متابعة المسـتجدات المهمة، وفي تعلم اللغات الأجنبية وغيرها وباختصار كل ما من شأنه الحصول على القوة، والقيام بالشهادة.

ثانياً إ دراك الذات ومعرفة الآخر وكيفية التعامل معه:

ولقد جعل الله لكل من آفتي الظلم والجهل دواءً، فدواء الجهل السؤال والتعلم، ولذلك يقول -صلى الله عليه وسلم- لمن أفتوا صاحب الشجة بالاغتسال حتى مات (قتلوه قتلهم الله..ألا سألوا حين جهلوا، فإنما شفاء العي السؤال..)(3) فالعلم بنوعيه: العلم بالدين والشرع، والعلم بالكون والواقع هما الشفاء للداء العريق في الإنسان، داء الجهل، وقد يسر الله وحيه ودينه: ((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر..))[القمر: 32]، كما يسر فهم كونه، وقد وضع الحدود الشرعية والكونية، والمخالف لها إنما يضر نفسه، ويدمر مجتمعه وتبقى السنن ويتمزق هو: ((تلك حـدود الله فـلا تعتـدوها..)) [البقرة: 229] ولقد أدرك علماء الطبيعة ذلك فالتزموا بالحدود الكونية كما هي دون أن يسألوا عن سبب مقدار سرعتي الضوء والصوت، ولا عن سبب مقدار عجلة الجاذبية، ولكنهم اكتفوا بقياسها والتزموا به، ولو خالفوه لدمرت آلاتهم وخاب سعيهم.

وهكذا الشأن في أمر الله الشرعي ووحيه المنزل، فهو يسير ولكنه خطير، سهل ولكنه ثقيل..: ((إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً..))[المزمل: 5] ويكفي أن

نعلم أن أخطر مذهبين عقائديين شهدهما العصر الحديث، وقامت على أساس هذين المذهبين ما يسمى بالدول العظمى روسيا وأمريكا، وهما الرأسمالية والاشتراكية (الشيوعية) ومجالهما الحيوي الاقتصاد.
إن هذين المذهبين نُقضا في كتاب الله تبارك وتعالى في آية واحدة هي قوله سبحانه: ((ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا..)) [البقرة: 275]، فكون البيع حلالاً ذلك نقض للاشتراكية التي تدعو للملكية العامة، وإبطال ملكية الأفراد في النهاية وتحريم البيع بذلك، وتحريم الربا نقض للقاعدة المركزية في النظرية الرأسمالية، وهي قاعدة الربا التي لا وجود للنظام إلا بها.
من ذلك يتبين لنا أن دعاة الإسلام والساعين لتغيير مجتمعاتهم حتى تسير وفقاً لشريعة الله تبارك وتعالى، عليهم أولاً وقبل كل شيء فهم شريعة الله تبارك وتعالى كما أنزلها لا كما تهوى نفوسهم وترغب أفئدتهم، عليهم فهمها بشمولها وعمومها، وبالطريقة ا الصحيحة المعتبرة، عليهم أن يثنوا ركبهم لهذا الغرض ويصبروا ويصابروا، وعليهم كذلك فهم واقع مجتمعاتهم والواقع الدولي من حولهم، وتنزيل هذا الفهم الشرعي على الواقع المتغير المتجدد، كي يتمكنوا من قيادة ركب البشرية، وليس فقط منافسة خصومهم والوقوف أنداداً لهم.
ثم عليهم بعد ذلك الفهم، وهذا الوعي تربية ذواتهم ومن معهم على الجوانب السلوكية والسبل العبادية لله تبارك وتعالى، والقيم الخلقية مع عباده المؤمنين وغير المؤمنين، وهي عملية شاقة فعلاً، ولكن لا مناص عنها، كانت تلك هي منهجية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبه حبه، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: كنا لا نجاوز عشر آيات حتى نعلمهن، ونعمل بهن، فتعلمنا العلم والعمل جميعاً.
ولا سبيل غير هذا السبيل: علم وعمل، معرفة وسلوك، قول وفعل ظاهر وباطن.. ولقد لبث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ربع قرن يربي أصحابه بالعلم والعمل ثم ما لبث في الربع الثاني أن هز بهم رضوان الله عليهم أجمعين الدنيا وجابه بهم التاريخ، وأسقط بهم القوتين العظميين: فارس حيث أخبر عنهم -صلى الله عليه وسلم-: (إذا هلك كسرى فلا كسرى غيره..)(4)، والروم البيزنطية التي انكفأت على نفسها في أوروبا، ولم ترفع رأسها طوال عشرة قرون حـتــى جاء العصر الحديث، والذي حدث أول مرة يمكن أن يتكرر مرة أخـــرى إذا وجدت شروطه الموضوعية، لأن الوحي لايزال موجوداً محفوظاً: ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله..))[الصف: 9].

ثالثاً إدراك سنن الله في الكون والأفراد والجماعات:

لقد تعلمنا من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله، أن لله في مسيرة الكون والمجتمع سنناً دقيقة قابلة للرصد تحتــاج، للتعامل معها والتحرك من خلالها،

كما قال سبحانه: ((ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلاً..))[فاطر: 43]، ومن تلك السنن الكثيرة أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن للتمكين في الأرض شروطاً وضوابط: ((إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين..))[البقرة: 124]، وقال أيضاً: ((إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم..))[محمد: 7].

ومن ذلك أن الناس يسارعون لتكذيب من يأتيهم بالغريب غير المعتاد ويحتاجون لكثير من الوقت حتى تختمر الفكرة في أذهانهم فيؤمنوا بها: ((بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله..))[يونس: 39]، ومن ذلك أيضاً أن الجماهير تخضع لما يسمى في نظريات الإعلام بالعقل الجمعي و قادة الرأي، قال تعالى: ((إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر..))[المدثر: 18-25]، قال هذا قائد الرأي الجاهلي الوليد بن المغيرة ثم رددتها الجماهير من ورائه دون تفكير، ولذلك طالبها تبارك وتعالى بالنظر الفردي أو الثنائي: ((قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد..)) [سبأ: 46].

وإذا صح هذا في الجاهلية مع التخلف الإعلامي والاتصالي والانتقالي فهو في العصر الحديث أجلى وأوضح وأظهر، لذلك فإن ثقل الأمانة وضخامة التبعة على الدعاة في الوقت الحاضر كل ذلك ضخم جداً، ولن يطيقوه إلا بالعلم ديناً ودنيا، والعمل الجاد عبادة وعمارة، والتربية الصالحة العميقة نسكاً وخلقاً، ثم رص الصفوف ووحدة الكلمة، على كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، والوعي بالواقع والسنن، والتحرك بالأهداف البعيدة والكبيرة: ((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور..))[الحج: 40،41].

والحمد لله أولاً وآخراً.

هوامش:

(1)صحيح أبي داود، كتاب اللباس باب ما جاء في الكبر، وصححه الألباني في صحيح الجامع ج2، ص770، ح/4608.

(2)صحيح أبي داود ، كتاب اللباس باب ما جاء في الكبر، ج2، ص 771.

(3)أبو داود، ج1، ص 239، ح/336، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ج2، ص 804، ح/4362.

(4)أخرجه البخاري، كتاب الأيمان، ج7، ص 218 ؛ مسند أحمد، ج2، ص 263 .

منـتـدى الـقـراء

من مآسي تاريخنا المعاصر

صـالح محمـد العصـيمي

وقفت ذات يوم ممعناً النظر في خـريـطـــة العالم الإسلامي، وكلما نظرت إلى بقعة في تلك الخريطة أغمضت عيني، ثم صرفـتهما بسـرعة إلى بقعة أخـرى ثم بدأت أبحث عن مكان يكسوه اللون الأخضر، ولكن للأسف كانـت تـلـــك الـخـريـطـة تكاد أن تكون حمراء اللون والدماء الزكية تسيل في شعاب العالم الإسلامي وأوديته وتتجمع أنهـاراً مع أنهار الدمـوع لتكون بحر المأساة الكبرى، أما الرؤية فـي بـحــر المأساة فإنها معدومة فشمس الإسلام قد حجبت بغبار الذنوب والخطايا.

ففي البوسنة والهرسك يقتل المسلمون، ودول الـغــرب تحيك المؤامرات. والمسلمون يبلغون المليار، يعيش أكثرهم بلا هدف، ولا هم مشترك وذلـــك يجعلـهــم مجرد هامش في صفحة التاريخ.

كان اليهود والنصارى وأمم الأرض جميعاً يهابوننا عندما كنا نهاب الله ويخشوننا عندما كنا نخشى الله، ويأبهون بنا عندما كنا نهتم بإخواننا في كل مكان، أمــا وقد تركنا ذلك كـلـــه فكان لزاماً أن تمضي سنة الله فينا ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغـيــروا مــــــا بأنفسهم))[الرعد: 11].

إن نداءات المسلمين من يوغسلافيا أو من الفلبين أو من الحبشة والهند موجهة أساساً إليك أنـــت!.. نعم أنت يا من تقرأ هذه السطور وتقلب هذه الصفحات، هل تعتقد أن المخاطب غيرك أو أن المسؤول سواك؟ كلا وإن كنت تحسب ذلك فاعلم أن هذه هي المشكلة وأن هذا هو الخلل.

عندمــــا صاحت تلك المسلمة وامعتصماه، كان هناك رجل مسلم لم يتجاهل الأمر، كذلك فإنه لم يـقــل: هل سأقاتل الروم وحدي!! ولكنه فعل ما يستطيع فركب البحر ثم جد في السير حتى بلغ المعتصم فبلغه الصرخة، ولو أن كل واحد منا عرف تقصيره فعمل لإكماله لكان الأمر هـيـنـــاً، ولكن للأسف كل من سمع بالمصائب اعتقد أن المخاطب هو كل مسلم يعيش على هذه البسيطة سواه.

اعلم يا أخي أنك بإيمانك وبغيرتك على أمتك تمثل أمة واحدة ودولة كاملة، فيك جهاز للدفاع عن الأمة، وفـيـك جهاز للإعلام بواقع الأمة، وفيك بيت للمال يدعم الأمة، فلا تحتقر من أمرك شيئاً، ذلك الرجل الذي بلّغ المعتصم صيحة المرأة المسلمة انتقم للإسلام ببضع كلمات، فهلا نصرت الإسلام وأنت على أحد ثغوره؟!

يجب على كل منا أن يساهم في العلاج، وإليك بعضاً مما تستطيع تقديمه:

1- اجعل لهموم الأمة موقعاً هاماً في خريطة قلبك: فالمسلم الحق يتأمل حال أمته ثم يتألم له، فإذا حضر الطعام تذكر إخوانه الجياع، وإذا جلس مع

أفراد أسرته تذكر أفراد أسرة أخيه المنكوب، فصلاح الـديــن لم يولد فارساً، ومحمد بن القاسم لم يولد قائداً، بل كانوا أفرادلـ مثلنا ولكن نفوسهم سمت فسموا، وهممهم ارتفعت فارتقوا.
2- الـدعـاء: ومن منا يشك فـي أن الـدعــاء أمضى سلاح وهو على العدو أشد من القنابل والصواريخ، وهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر).
3- الدعم المالي: وليس المقصود بذلك دفع مـبـلــغ زهـيـد نشعر بعده بأننا أدينا ما علينا، ولكن لنقدم إلى من حرم حق العيش والحياة من ضروريات الـحـيـــاة ما أمكن، فضلاً عن كمالياتها.

@الورقـة الأخـيرة

ذوق الـداعـيـة

جـمـال سـلـطـان

الدعوة إلى الله ليست في الحقيقة عملاً عـلـمياً بحتاً، بقدر ما هي عمل احتماعي، يتخاطب فيه الداعية مع أصناف من البشر، ومستويات من المدارك والأفهام، إضافة إلى شبكة كاملة من العلاقات الاجتماعية لها حساسيــاتها تجـاه الكـلام والخطاب والألفاظ، وهذا كله مما يوجب على الداعية المسلم الاحتفاظ بقدر عال من الـذكـاء والحضـور الذهـني، وقبـل ذلك وبعده إلى قدر عال من الذوق والأدب ورهافة الحس، بالنظـر إلى كونـه يمثل تجسيداً فردياً للوجود الإسلامي في المجتمع.
أقول هذا الكلام، المحـرج لبعضهم، بمناسبـة تكرار صدور تعبيـرات وكـلـمـات وألـفـاظ مـن بعض الدعاة، في دروسهم أو أشرطتهم أو على منابرهم هي بالتأكيد مما يأباه الذوق، وينفر منه السمع، ويصدم المستـمـع بطلقات ثقيلة من القبـح والذمـامـة والأذى، وصحيح أن هذا كله لا يصدر عن كبار الدعاة ورموز الدعوة المتميزين، وإنما يصدر عادة عن شباب الدعاة، والمبتدئين في هذا المجال، ولكن ذلك لا يمنعنا مــن الإشارة إليـه والتحـذير منـه، لشيوعه وأسرافـ هؤلاء النفر في استعماله.
خذ مثلاً لذلك الحديث عن تميز المسلمين، وشمولـيـة ديـن الإسـلام لـكل سلوكيات المسلم، وهناك نصوص كثيرة تغني في هذا الشأن، إلا أن بـعـض الـدعــاة لا يتخيــر أو لا يجـذب حاسته سوى قول مشرك أو يهودي بذيء، مـوجهاً حديثه إلى أحد الصحــابة: إنـي أرى صاحبكم يعلمكم كل شـيء حتى يعلمكم الخراءة.
يا أخي هذا قول يهودي ثائر حاقد، وبذيء، وقد سجل أهل العلم قولته مــن بــاب أمانة النقل، أما أن تصبح بذاءة اليهــودي، والـخـراء، وحـديـث الخـراءة والمستـفــاد من قصـة الخراء، هي حديث المنابر وأشرطة التسجيل، فهذا

أبداً لا يـكـون مـن الذوق ولا من ذكـاء الدعوة ولا من أدب الداعية، ولا من رهافة الإحساس.

إن نزعة تسقط الغرائب والفرائد في الخطاب الدعوي، هي ولا شك فعل المبتـدئين، وقليلي العلم والخبرة معاً، ولكننا على كل حال لابد أن ننبه كل من تصدى إلى الـدعوة، إلى شـرط جوهري وبسيط، وهو أن يمتلك الذوق والأدب الرفـيع والرهافة، وأن يحـدث الـنـاس بـمـا يعرفون ويحتملون، لا أن يتلمس لهم من الفـرائـد والـنوادر ما يجرح مشـاعرهــم أو يصـدم خواطرهم، بل عليه أن يسمو بهم في خطابه.

والله المستعان

تمت بعون الله والحمد لله رب العالمين
